الباب الثالث

واقع العالم الإسلامى

الفصل الأول: من الناحية الفكرية.

الفصل الثاني: من الناحية الاجتماعية.

الفصل الثالث: من الناحية السياسية.

الفصل الرابع: من الناحية الاقتصادية.

الفصل الأول

واقع العالم الإسلامي من الناحية الفكرية

الفكر ركيزة هامة في حياة الأمم ودليل على حيوتها وتقدمها أوعلى جمودها وتخلفها في جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية(١) والأمة القوية هي التي يجتمع أبناؤها على عقيدة واحدة ومباديء واحدة فتكون لها وجهة نظر واحدة أي تتمتع بوحدة الفكر.

وتعتبر وحدة الفكر من أبرز ظواهر التاريخ الإسلامي ، فقد انتظم مختلف وحداته ودوراته وموجاته فكر واحد وثقافة واحدة ، بقيت الرابط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها. هذا الفكر هو روح الجماعة الإسلامية والمحرك الأساسي والقالب الذي تشكلت فيه مختلف القيم والمفاهيم والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولعل أبرز مايتمثل في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية هو :

الأصالة : فقد قام الفكر الإسلامي على التوحيد والنبوة والمساواة والعدل. وهي أسس جديدة خاصة بالحضارة الإسلامية لا صلة لها بالحضارات المادية السابقة للإسلام ـ السريانية والفارسية والرومانية واليونانية والهندية.

ولقد أدرك الأوروبيون وفي وقت مبكر ماللفكر من أهمية في صراعهم الحضاري مع المسلمين ولمسوه يقينا بما ترتب على نتائج الحروب الصليبية ـ لمسوا يومها أن انتصارهم العسكري لم يجدهم شيئا أو يبق لهم وجودا في الأمة الإسلامية بعد أن دحرهم صلاح الدين ومن بعده ، ولذلك اتجهوا إلى أفكار الإسلام فانكبوا على الفكر الإسلامي فترجموه وقاموا بدراسته وتلخيصه ، فكانت أولى أعمالهم ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وبعدها فتح باب الدراسات الإسلامية والعربية عندهم على مصراعيه(٢) ، فكانت حركة الاستشراق التي مهدت لهم طريق الاستعمار فيما بعد. هكذا عمل الأوروبيون على اكتشاف الفكر الإسلامي وترجمته من أجل إثراء ثقافتهم فقادهم ذلك إلى حركة النهضة الأوروبية وساروا فيها أشواطا. ثم عملت أوربا على كشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لهدف سياسي لتضع خططها الرامية للسيطرة على بلاد الإسلام مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في

---

(١) السحمراني ـ مالك بن نبي ـ مفكرا اصلاحيا ص ١٣٢.

(٢) السحمراني ـ نفسه ص ١٣٢.

البلاد الإسلامية من ناحية ولتسيير هذه الأوضاع طبق ماتقتضيه هذه السياسة في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاصة فيها لسلطانها(٣). ومن هنا بدأ **يظهر الأثر** السلبي للانتاج الاستشراقي الفكري الذي كتب عن المسلمين وأحيانا بالعربية ليمارس دور التخدير أو الالهاء ليبقى العالم الإسلامي خلوا من أي توجيه أصيل ، وليبقى الباب مفتوحا لتلقي مايصدرونه من أفكار تحكم سيطرة المستعمرين السياسية الاستعمارية تحت شعار التقدمية التي هي في الواقع ستار يخفي مطامع الغرب ووحشيته.

هذا الأسلوب هو مانسميه : **بالغزو الفكري** : وهو الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، مما يتعلق بالعقيدة وماينبثق منها من أفكار وتقاليد وأنماط حياة.

وهو من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه ولتذليل قياده وتحويل مساره وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيا إذا أمكن ، وهذا هو أقصى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للقلوب وإن كان في الوقت نفسه هو أقصى درجات نجاح الغزاة.

وسلاح هذا الغزو : الفكرة ، والرأي والحيلة والنظريات والشبهات وخلابة المنطق وبراعة العرض وشدة لدادة الخصومة ، وتحريف الكلم عن مواضعه وغير ذلك.

ويتميز الغزو الفكري بالشمول والامتداد فهو حرب دائبة لا يحصرها ميدان ، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعا ، وتسبق حروب السلاح وتواكبها ، حتى تستمر بعدها لتكسب ماعجز السلاح عن تحقيقه ، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته ، حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه ، أو يصبح امتدادا ذليلا لهم(٤). وقد دمغ الله سبحانه وتعالى قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في النكارة ، مثل : الشياطين ، السفهاء ، المعوقين ، المرجفين ، أكابر المجرمين ، وأئمة الكفر ، والذين في قلوبهم مرض.

كذلك سمّى هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة ونتائجه الخبيثة مثل :

---

(٣) انتاج المستشرقين أحمد . م.س. ص ١٢ وأحمد يوغسلافي الجنسية مسلم. نال درجة الدكتوراة من الأزهر عام ١٩٧٤م برسالته التي عنوانها : فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب المعاصر.

(٤) د. عبد الستار ـ فتح الله ـ الغزو الفكري ص ٧.

زخرف القول ، الغرور ، الخبال ، الفتن .. إلخ(٥).

وقد بين القرآن الكريم أن نتائج وغايات هذا اللون من الحرب هي أخبث وأنكد من آثار السيف والقتل ـ قال تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾(٦).

وفي مرحلة السيطرة الاستعمارية على بلاد الإسلام اهتم الغرب كثيرا بإحداث الفراغ الفكري ، واقتلاع الشعوب الإسلامية من جذورها الحضارية ، بإظهار تهافت كل ماتملكه من مقومات أمام عصر الذرة وغزو الفضاء ، و لم يفصل الغرب في عدائه للإسلام والمسلمين أبدا بين العروبة والإسلام ، وإن حاولت جامعاته وإرسالياته أن تلقن المسلمين غير ذلك ، (فموروبيرجر) أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الأمريكية ومؤلف كتاب العالم العربي اليوم يقول في معرض حديثه عن معارضة الغرب للوحدة العربية :

« لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعني قوة الإسلام ، ونفس الشيء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة في أفريقيا »(٧).

وعمل المستعمر على نقل المعركة بين أبناء البلد المغلوب على أمره ، بأن استخدم من تربى في معاهده ، ومن قلده ، فأثارهم ضد دعاة الفكر الإسلامي في بلادهم ، فتحول الأمر إلى صراع داخلي ، أثار الفوضى ، وسرب في غمرته الأفكار الهدامة ، وزرع اليأس في نفوس دعاة الفكر الأصيل من إمكانية التغيير. بذلك حاول الغرب والمتغربون تعطيل النشاط الفكري ، فبقي النشاط السياسي بالتالى أعمى ، والأفكار دون جدوى(٨).

وحتى يتم تعطيل دور المفكر فقد عمل الإستعمار على :

أـ تنفير الرأي العام من أفكاره بجميع الوسائل المتاحة للإستعمار.

بـ تنفيره هو نفسه من القضية التي يكافح من أجلها بإشعاره بعبث كفاحه(٩).

فيخلق المستعمر بهذه الطريقة نمطين من المواجهة لأي مفكر يريد أن يدخل حلبة الصراع لمواجهته ، حين يستغل إمكاناته الضخمة الإعلامية والثقافية

---

(٥) فتح الله ص ١١.

(٦) سورة البقرة الآية ٢١٧ ، فتح الله ص ١٢.

(٧) محمد جلال كشك ـ الغزو الفكري ص ٧.

(٨) سمابلوفتش ـ أحمد م.س الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص ٤٢، ٤٣.

(٩) السحمراني ـ مالك بن نبي ص ١٣٧.

وعملاءه في السر والعلن لكي يحارب شخصا وعى مشكلات بلاده ، وأراد أن يوجهها بأسلوب سليم ، بدايته وضع الأسس الفكرية ، واستقطاب الناس حولها ، وكثيرا ماتحاول حكومات بلاده التعتيم على ماينشره أو يقوم به ، وتزداد معاناته حين يواكبه قومه باللامبالاة ، ويواجه بالأفكار المصدرة الملونة بالأحمر أو الأزرق ، ولكنها في مضمونها تحمل القناعات الاستعمارية القديمة برداء الحرية والإخاء والمساواة ، أو الماركسية والاشتراكية(١٠) ، وبهذا عمل الاستعمار على تحطيم المعنويات الإسلامية وبقية الروح الإسلامية التي يستند إليها وجود الأمة التاريخي بملامحها الخالدة المميزة له.

وقد شهد العالم الإسلامي تغيرات فكرية في عهد الجمود ، وقبل انهيار الخلافة العثمانية، فنشطت دعوة المفكرين للعودة إلى الإسلام ، والتكتل الإسلامي ، أي فكرة الجامعة الإسلامية ، وإصلاح أوضاع المسلمين وعقيدتهم كدعوة الشيخ

---

(١٠) نفسه ص ١٣٩.

محمد بن عبد الوهاب في نجد(١١) ، والدعوة السنوسية في ليبيا(١٢) ، والمهدية في السودان . والدهلوية في الهند(١٣) ، . إلا أن هذه الدعوات الثلاث وماشابهها كانت محدودة النجاح حيث لم تتجاوز نطاق بيئتها الإقليمية. أما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فكان لها أثر في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي.

وبعض هذه الدعوات انحصر عند حملة الأقلام والمفكرين و لم تمس عامة الناس

---

(١١) حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ولد الشيخ محمد عام ١١١٥هـ/١٧٠٣م في بلدة العيينة ، إحدى قرى نجد ، في شمال الرياض. في أسرة علمية . حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ، وتتلمذ على أبيه في الفقه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل. وكان مشغوفا بالعلم والدراسة ، واعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

رحل في طلب العلم ، فذهب إلى مكة حاجا ، ثم انتقل إلى المدينة ، وطوف في البلدان الإسلامية المجاورة لنجد ، وأخذ عن شيوخها وعلمائها ، فزار الإحساء ، وأقام في البصرة نحو أربع سنوات ، وفي بغداد خمس سنوات وعاد إلى حريملة حيث كان يقيم والده بعد تركه العيينة ، وبدأ دعوته وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد ارتكزت هذه الدعوة على مبدئين رئيسيين :

١ـ التوحيد : أي الدعوة إلى الله وحده ، والتعبد له دون شريك ، واعتمد في ذلك على القرآن الكريم والسنة النبوية وآثار السلف ، ونادى بالجهاد في سبيل نشر عقيدة التوحيد الخالصة لوجه الله دون اشتراك أحد معه في العبادة.

٢ـ الاجتهاد : بشرط عدم مخالفة نصوص القرآن والسنة ، وآثار السلف الصالح. وأنكر تقليد أحد غير الأئمة الأربعة ـ أهل السنة والجماعة.

وركز الشيخ على محاربة البدع ، وتقديس الأولياء والحج إلى قبورهم ، والتمسح بأضرحتهم ، وتقديم النذور ، والاستشفاع بهم لجلب منفعة أو لدفع ضر. وكانت هذه الأضرحة والقبور في كل مكان وفي كل مدينة من العالم الإسلامي في عصر انحداره ، بحيث انحرف أكثر المسلمين عن التوحيد الصحيح. وقد ركز الشيخ على مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله. وأطلق على نفسه وأتباعه اسم : (الموحدين). أما (الوهابية) فهو اسم أطلقه عليهم خصومه. واستعمله الأوروبيون. ثم جرى على الألسن.

وقد تحولت دعوته إلى حركة جهاد ، حين التقى بالأمير محمد بن سعود في الدرعية وبايعه على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والتمسك بسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الشعائر الدينية. وقامت المملكة العربية السعودية الأولى. وتوفي عام ١٢٠٦هـ/١٧٩١م. (انظر ابن غنام ـ روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام ، الشيخ أحمد ابن حجر ـ الشيخ محمد بن عبد الوهاب. د. صالح العبود : عقيدة محمد بن عبد الوهاب)

(١٢) انظر فصل أفريقيا والمسلمون في هذا البحث.

(١٣) انظر فصل المسلمون في الهند وكشمير في هذا البحث.

إلا مسا خفيفا ، فبقي عامة الناس على أوضاعهم العقدية ، كما نشط دعاة التغريب وكان حملة الفكر في جميع الأطراف مضطرين أن يبرروا اتجاهاتهم وأفكارهم بالتوفيق مع الإسلام العميق الجذور لدى الأمة ، وإن كان التخلف الفكري عندهم قد هد كيانهم وكيان الأمة ، وكان من الممكن أن تنتهي الأمة في نهضتها على أسس الإسلام ، ولكن الضربات الموجعة من قبل التحديات الخارجية ، وشدة الانحراف عن النهج الإسلامي لدى عامة الناس كانت من الشدة بحيث حالت بين تلك العناصر المفكرة على أسس الإسلام وبين العامة. فذهبت جهود المفكرين بفائدة محدودة.

وبعد انهيار الخلافة العثمانية عام **١٣٤٣هـ/١٩٢٤م** ، واجه الغرب الصليبي ، والشيوعية ، والصهيونية الأمة الإسلامية بالتحدي الكبير فنشط الاستشراق(١٤) ، والتبشير(١٥) ، والمنحرفون من الأمة نفسها ، وأصبحوا في حل من القيود ، يعبثون كما شاء لهم العبث ، وأخذت أفكارهم بما أوتيت من دعاية منظمة ، تجد هوى وتأييدا لدى العامة لتصبح رأيا عاما باسم التقدمية ، والنهضة ، والإصلاح ، ومقاومة الاستعمار ، وقامت مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام ، وبين ماجاءت به حضارة الغرب ، من أفكار ونظريات في ميادين الحياة ، فبرزت **الأفكار التوفيقية** وكان عماد هذا العمل هو تفسير النصوص تفسيرا عصريا يلائم الفكر السائد ، ومحاولة إيجاد نقطة التقاء بين الخطين الإسلامي والمادي على تباينهما ، وعلى الأقل على تباعدهما ـ وقد ألجأ الهجوم الفكري في هذه المدارس إلى مواقف دفاعية غريبة عن الإسلام ، إذ جردته من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت لها بمعان جديدة بعيدة كل البعد عما تلقاه المسلمون عن النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق ، والربا ، والتماثيل ، والجهاد ، وأهل الذمة ...

---

(١٤) معظم المستشرقين من المبشرين.

(١٥) التبشير باعثه الحقيقي والأول في رأي القائمين به هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد أبنائها ويبدو بوضوح أن أشد الأديان مراسا في إباء الاستعباد هو الإسلام ولذلك يتمنى المبشرون أن ينصروا المسلمين كلهم. ومع أن التبشير يتناول البوذيين والبرهميين أيضا فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون ، ولقد استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين على الرغم من اختلاف طوائفهم وتباين الأقنعة التي يرفعونها على وجوههم.
(التبشير والاستعمار ص ٤٥)

وهذه الأمور كلها بلغ فيها الإسلام الغاية العليا في الأحكام والسمو ، ولكنها عادت في رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكري الغازي ـ عادت مثالب أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع ـ أو هي في أوهامهم ـ كانت فضائل صالحة لزمانها ، واحتاج التطور البشري إلى تعديلها(١٦). ولووا عنق النصوص ليؤيدوا فروضهم التي وضعوها. ووجد المفكرون المسلمرن الخلص أنفسهم في مؤخرة الركب ، لا في الصدارة الجديرة بهم ، فالإلحاديون والماديون وتلاميذ المستعمرين والتوفيقيون يسددون عليهم الطرق ، ويثيرون حولهم الضجيج ، ورغم ذلك ظلوا على ولائهم للفكر الأصيل وإيمانهم به فعالجوا قضايا الفكر الإسلامي ومدى ارتباطه بواقع البشر معالجة بارعة مقنعة.

وأطلت رؤوس الأفكار المنحرفة بدون حاجز وبحرية كاملة ، بما يملكونه من وسائل نشر ودعاية وإعلان ووظائف عليا وحراسة ، فدخل الفكر القومي والوطني والعلماني والمادي والاشتراكي والعالمي والوجودي إلى صفوف المسلمين باسم العلم وحرية البحث ، والنهضة ، والإصلاح ، والثورة على كل قديم.على حساب الرابطة الإسلامية. فمبدأ القومية يستهدف العنصرية ، وهي تستهدف إيجاد الصدع بين العرب والفرس والترك والهنود وهم جميعا مسلمون ، كما تهدف إلى إعلاء شأن التاريخ الإقليمي(١٧) ، وفكرة العالمية تستهدف القضاء على الذاتية الإسلامية المتميزة ، وهي كثيرة ، كانت تلبس ثوب الرحمة والإنسانية وحب السلام والوئام منها : الماسونية والشيوعية والروحية والدعوة إلى التوفيق بين الأديان ،وبين الإسلام والنصرانية منها خاصة(١٨) والدعوة إلى القومية والعالمية ـ سارت في خط واحد من أجل معارضة مفهوم الإسلام الذي دعا إلى وحدة فكرية واجتماعية بين أهله تعلو على العنصر والقومية والدم.

وأدرك الغرب أن العالم العربي بخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي ، ويزاحم أوربا وينتصر عليها ، إذا هو تمسك برسالة الإسلام ، ولقد مر معنا ، أن الغرب في عدائه للإسلام والمسلمين لم يفصل أبدا بين العروبة والإسلام ، كما مر معنا رأي موروبيرجر ، والبيانات الفرنسية في حرب الجزائر

(١٦) انظر فتح الله ص ٩٣-٩٤.

(١٧) أنور الجندي ـ تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ص ٣٠٠.

(١٨) الاتجاهات الوطنية ج٢ص ٣١٥.

كانت تعلن مصرع كذا من المسلمين في معارك الجزائر(١٩) ، فبعد أن حاول الفصل بين العرب والعالم الإسلامي ، واجه العرب بالتحدي فأثار في مختلف أجزائه أفكارا إقليمية ضيقة تبدد أفكاره ، فبرزت فيه دعوات فكرية هدامة نذكر منها :

١- **الدعوة إلى الإرتماء في أحضان الغرب** ، وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز ، وقد ترجم هذا الإتجاه كثير من الذين تقدموا إلى الصفوف الأولى في قيادة الأمة ، بعد زوال الخلافة العثمانية ، مثل : طه حسين ، وسلامة موسى ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفي السيد ، وصهره إسماعيل مظهر في مصر.

فسلامة موسى في كتابه (اليوم والغد) **١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)** يرى أن مصر جزء من أوربا ، وليست جزءا من آسيا (أي من الإسلام)(٢٠) ويرى : « أننا إذا أخلصنا النية مع الانجليز فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم. وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على الرجعية في مصر وننتهي منها ، فلنول وجهنا شطر أوربا »(٢١).

وطه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ظهر سنة **١٣٥٧هـ/١٩٣٨م**) فيقول : « إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي : أن نسير سيرة الأوروبيين ، ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ومايحب منها ومايكره ، ومايحمد ومايعاب »(٢٢) وهذا شبيه بقول (أغا أوغلي أحمد) أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه :

« إننا عزمنا على أن نأخذ كل ماعند الغربيين ، حتى الإلتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم »(٢٣).

وقاسم أمين يقول في كتابه المرأة الجديدة ، بعد أن تحدث عن أوضاع المرأة المسلمة في مصر : « هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له

(١٩) كشك - ص ٧، ص ١٢.

(٢٠) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٢٢.

(٢١) نفسه ج٢ ص ٢٢٧.

(٢٢) مستقبل الثقافة في مصر ص ٤١.

(٢٣) مصطفى صبري - موقف العقل والعلم والعالم ج١ هامش ص ٣٦٩. وصدق رسول الله ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع - والله لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم ».

دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، وإذا أتى ذلك الحين - ونرجوا ألا يكون بعيدا - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أن من المستحيل أن يتم إصلاح مافي أحوالنا ، إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية[٢٤].

وتقاطرت البعثات على الدول الأوروبية من أبناء المسلمين استكمالا لتعليمهم العالي وماماثله ، وكانت هذه هي نهاية المطاف في الإجهاز على بقايا الإسلام وطباع الشرق وعاداته في نفوس أكثرهم ، حيث لايرجعون إلا وقد تأثروا بوجهة الغرب وفلسفته ، أو أخذوا طريقة العيش الأوربي ، (على حد تعبير المؤرخ توينبي) وبذلك أصبحوا رصيدا في حساب أعداء الإسلام بالسلوك والتربية ، لإحداث الإنقلاب الجذري في حياة المسلمين من حيث علموا أو جهلوا ، ومن حيث أرادوا أو انساقوا مع التيار بلا فهم ولا وعي[٢٥]. وقد عم هذا الأسلوب بلاد الإسلام ، ومن هذه الصور ماكتبه ك.ك. برج : الأستاذ بجامعة ليدن يقول :

« اضطر الأندونوس من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم ... نجد أولئك المعلمين ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها - ومعنى هذا انهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضا...

إن تغير نزعة الشباب الأندونيسي المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوربي وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ماحدث عند الشباب المصري منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع القرن ، ومسلك الشباب الأندونيسي إزاء التعليم الغربي يسير على مثل ماسار في مصر ، يظهر الشباب عداءه للعقلية الغربية ولكنه لايستطيع في الوقت نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية.. وهو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة - بسبب ثقافته الغربية - عن جمهور الأمة التي ولد فيها »[٢٦].

٢- احتقار الماضي الإسلامي وتربية الأجيال تربية علمانية (لادينية) حديثة :

والإتجاهات الفكرية التي حملت وزر هذا ، تلك التي دعت إلى الإرتباط بالماضي التاريخي الغامض ، البعيد ، السابق على ماضيهم الإسلامي الحي ، ودعوة

---

(٢٤) المرأة الجديدة ص ١٩٢-١٩٣.

(٢٥) فتح الله ص ٧٤.

(٢٦) (كتاب وجهة الإسلام ص ١٩٠ ترجمة أبي ريدة). فتح الله ص ٧٧.

إحياء الحضارات القديمة ظهرت في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال أفريقية وفارس والهند وأندونيسيا(٢٧). يقول أحد المستشرقين : « إننا في كل بلد إسلامي دخلنا ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ماقبل الإسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ماقبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات(٢٨) ».

ومن **الدعوات** : **الفرعونية في مصر** : التي أطلت برأسها عند غزو نابليون لمصر عام **١٧٩٨م** فقد استصحب معه بعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة ، وأنشأ معهد الآثار الفرعونية في حي المنيرة بالقاهرة ومايزال قائما مكانه إلى اليوم. فنشط دعاتها لغزو الأقطار بها وملأوا أبصار قارئي الصحف ، وأسماع شاهدي الندوات بالدعاية لها ، ورسموا رأس أبي الهول على طوابع البريد وعلى أوراق النقد واتخذه النحات محمود مختار شعارا لتمثال نهضة مصر الذي وضع نموذجه في باريس عام ١٩٢٠م.

واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعارا لها يمثل وثنا من معبودات الفراعنة ، ونقلت رفات سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بني على طراز فرعوني(٢٩). وأصبحت هذه الجامعة الفرعونية دعوة انفصالية ، تنزع نحو الأنانية والانطواء على النفس. وتعارض الجامعة الإسلامية والجامعة العربية(٣٠). ورأت في العرب غزاة دخلاء كاليونان والرومان سواء بسواء. وتزعمت صحيفة السياسة الأسبوعية هذا الاتجاه فأفسحت صدرها لدعاته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في شطر كبير من حياته ، إلى أن عدل من اتجاهه إلى الإتجاه الإسلامي(٣١).

وأثيرت **الفنيقية** في لبنان ، **والأشورية والسومرية والبابلية** في العراق ، **والكنعانية** في فلسطين ، **والبربرية** في المغرب ، **والحثية** في آسيا الصغرى ، **وماجاباهيت** الهندوكية في أندونيسيا **والفارسية** في إيران لعزل هذه الأجزاء عن

---

(٢٧) حصوننا مهددة من الداخل ص ٦٩.

(٢٨) محمد قطب - واقعنا المعاصر ص ٢٠٢ عن Near East, Cultured, Society Edited by.T.Cuylan Young.

(٢٩) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ١٤٦.

(٣٠) نفسه ج٢ ص ١٤٧.

(٣١) نفسه ج٢ ص ١٤٩.

بعضها والتفريق بينها تفريقا يحول دون التقائها في وحدة واحدة قوية. وكأن ذلك كان مبررا للدعوة العبرية اليهودية في فلسطين.

وقد عرضت **المناهج** ـ مناهج الدين والتاريخ الإسلامي بالذات عرضا منفرا مغرضا يجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الأطفال والتلاميذ والناشئة عامة عدم الاهتمام بهما. ويطبعهم على الإعتقاد بعدم جدواهما دراسيا. ويرسب في نفوسهم بالتالي الإستخفاف بالدين من حيث هو سلوك وعبادات ، وبالتاريخ الإسلامي من حيث هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية(٣٢).

٣ـ **العمل على تطوير المعاهد الدينية** وخاصة الأزهر في مصر :

الأزهر كما نعرف أعرق المعاهد الإسلامية ، بل هو أعرق جامعة في العالم كله ، وقد استطاع بفضل الأوقاف العديدة التي وقفها عليه أغنياء المسلمين خلال عصره الطويل ، وبفضل ماكان يتمتع به علماؤه من هيبة ومكانة ، أن يحمي العلوم الإسلامية والعربية بعيدة عن أن تمتد إليها يد الملوك والحكام بالتغيير والتبديل(٣٣) ، وظل هذا المعهد الوحيد ـ بمنأى عن العبث ببرامج التعليم فيه ، في حين امتدت يد المحتل الأوربي إلى كل برامج التعليم في مصر ، فشكلها حسب ماتقضي به مصالحه ، ورسخت مكانته حتى احتل مكانا مرموقا في العالم الإسلامي كله ، يتوارد عليه الطلاب من شتى بقاعه ، ثم يعودون إلى بلادهم ينشرون فيها الوعي الإسلامي ، وينشرون معه فضل الأزهر ، ويشيدون به ، ويدعمون مكانته في نفوس الناس. وازدادت مكانته بعد سقوط الخلافة العثمانية فأصبح رمز الجامعة الإسلامية(٣٤) والقلعة الإسلامية التي حسب لها أعداء الإسلام كل حساب ، وكان فيه رجال يلتهبون غيرة على الإسلام ويجابهون أعداءه في الداخل والخارج بكل جرأة. وأدرك نابليون عند غزوه لمصر أهمية الأزهر فحاول استمالة علمائه ، فلما فشل ضربه بالقنابل من القلعة ، واتخذه اصطبلا للخيل.

من أجل ذلك كله تعرض الأزهر لمقت أعداء الإسلام ، وصب اللعنات من قبل دعاة التغريب واللادينية ، حتى جعلوه رأس المشاكل الثقافية في مصر ، والعقبة الكؤود في سبيل النهضة. وكان المستعمر قد وضع خطة للقضاء على نفوذه ، ونفوذ المعاهد الإسلامية الأخرى كالقرويين في فاس ، والزيتونة في تونس ـ وتهوين

---

(٣٢) فتح الله ص ٧٠.

(٣٣) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ١٧٦.

(٣٤) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ١٧٦.

مركزه ، حيث وقفوا في طريق علمائه ، وحالوا بينهم وبين مراكز القيادة ، ومناصب الحكم ، ووظائف الإدارة ، وأشاعوا بين الناس أنهم يهدفون إلى تكريم الدين ، على أن يكون الإسلام على حد تعبيرهم بعيدا عن السياسة ، وبمعزل عن الحكم ، فأعفوا علماء الدين من التجنيد وأسقطوا الجهاد عمن حفظ كتاب الجهاد ـ القرآن الكريم ـ فأبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة(٣٥). قال أحد المبشرين في كلمة له في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القاهرة عام ١٩٠٦م وهو يتساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر : « إن السنيين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره والمتخرجون من الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين ، وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا ، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا ، لأن في استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذا ».

ثم عرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعية نصرانية ، تقوم الكنيسة بنفقاتها ، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة ، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية. وختم كلامه قائلا :

« ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر ، مركز عمل لنا ، لنشرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية »(٣٦).

وبقي الأزهر رغم ذلك مركزا من مراكز الدعاية المعادية لبريطانية كبيرة ومتعددة الامكانيات ، وكان يدرك دوره ، يظهر ذلك ، في البيان الذي أذاعه شيخه الأكبر سنة **١٣٤٩هـ/١٩٣٠م** عندما اشتدت حملة فرنسا على الإسلام وعلى اللغة العربية بين مسلمي البربر في المغرب الأقصى(٣٧). فجند النفوذ الاستعماري عددا حملوا لواء السخط عليه من أبناء المسلمين ،وكانت بداية ذلك سنة **١٣٤٣هـ/١٩٢٤م** عندما قامت في الأزهر حركة تدعو إلى إصلاحه ، وفي عام **١٣٤٦هـ/١٩٢٧م** أخذت صحيفة السياسة تطالب : « بصبغ الأزهر بالصبغة العصرية العلمية ، وهجر طرق التدريس العتيقة ». مستهدفة مؤامرة قديمة

---

(٣٥) أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ـ ص ٣٤٥.

(٣٦) الغارة على العالم الإسلامي ص ٥٧ـ٥٨.

(٣٧) انظر الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ١٧٦ نور الإسلام العدد الخامس من المجلد الأول ص ٣٤٢-٣٤٣.

كان قد عجز عن تنفيذها الإنجليز خوفا من الهياج الديني ـ وجاءت الآن تحت شعار الوطنية والإصلاح تارة وبسلاح البطش والإستبداد تارة أخرى ، وهذه المؤامرة تستهدف : عزل الأزهر عن الحياة ، واخضاع برامجه لرقابة تضمن إفناء شخصيته وفرنجته ، بحيث يصبح الدين تبعا للحياة وذيلا لها ، يتبعها ويتشكل بها بدل أن يقودها ويقومها. وسار الشيخ محمد عبده في هذا المجال شوطا عن حسن نية ، وربما عن شعور بالنقص ، وربما كان هذا من أهم أسباب التقدير والتمجيد اللذين حظى بهما الشيخ من المستشرقين والمبشرين ، ومن كرومر عميد الاحتلال في مصر(٣٨).

وجاء الدكتور طه حسين ، ولطفي السيد ، وأضرابهما وطالبوا أن تزال هذه الصخرة العنيفة التي تعترض الجسر الثقافي العريض الذي يمتد في أوربا إلى مصر عابرا البحر الأبيض المتوسط ، زاعمين أن مصر اكتشفت هويتها غربية مئة بالمئة. فيصوره طه حسين أثرا من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة ومشكلة من المشاكل التي تتطلب حلا(٣٩) ، ويقول :

« ولابد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهري الخالص ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة ، عرضناهم لأن يصاغوا صياغة قديمة ، ويكونوا تكوينا قديما ...

فالمصلحة الوطنية العامة من جهة ، ومصلحة التلاميذ والطلاب الأزهريين من جهة أخرى تقتضيان إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولي والثانوي في الأزهر »(٤٠).

وصدرت قوانين تطويع الأزهر باسم تطويره(٤١) تباعا من عام ١٩٣٦م ١٣٥٥هـ إلى عام ١٩٧٦م ١٣٩٦هـ. وتم التطويع في عهد الاستقلال وكان ثمرة من ثماره ونضرب لذلك مثلين :

أ ـ إلغاء القضاء الشرعي جملة وإدماج محاكمه في دوائر تابعة للمحاكم الأهلية التي قامت من أول يوم على القانون الوضعي ، فقد ألغيت المحاكم الشرعية المصرية

---

(٣٨) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٧١/ وانظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٧١-٢٧٢.

(٣٩) مستقبل الثقافة في مصر ص ٨٧.

(٤٠) نفسه ص ٧٥.

(٤١) العلمانية ـ ص ٦٠١.

عام ١٩٥٥م ـ ١٣٧٥هـ.

ب- إدخال القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وتسميتها كلية الشريعة والقانون بموجب القانون المعروف بقانون تطوير الأزهر. وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بين الشريعة والقانون وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائما أن تنبعث منها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شئون الحياة(٤٢).

وكان من أثر الانتصار في تطوير الأزهر أن تم تطويع البقية الباقية في معاهد الثقافة الإسلامية خارج مصر بسرعة إما بدوافع ذاتية وإما بقوانين إجبارية ، كجامع الزيتونة في تونس(٤٣) ، والقرويين في المغرب ، والمعاهد الدينية في الهند. وكان قد أثر عن الحاكم الفرنسي (ليوطي) ـ صنو (كرومر) في مصر ـ قوله : إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب.

ورغم ذلك فقد بقيت هذه المعاهد بشيوخها وشبابها ، تحمل الفكر الإسلامي الأصيل وتواصل رسالته ، وأنشئت جامعات أخرى إسلامية تحمل الرسالة كالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض ... وكلها تهدف إلى :

أ- تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام ورجاله.

ب- إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية وهي مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات.

ج- عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ، ويمجها طبع اللغة العربية.

د- العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفريق ومن العصبية لهذه الفرق ودراسة أسباب الخلاف دراسة بعيدة عن التعصب تهدي إلى الحق(٤٤).

هـ- تخريج الدعاة الواعين على عقيدتهم ، الواعين على أوضاع أمتهم ووسائل

(٤٢) فتح الله ص ١٣٢.

(٤٣) الذي أغلق عشية الاستقلال عام ١٩٥٦م ، وافتتح بعد تنحية الحبيب بورقيبة عن رئاسة الجمهورية التونسية عام ١٩٨٧م!!. (٤٤) أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ص ٣٤٥-٣٤٦.

نهضتها ، وتحقيق الخير لها.

٤ـ مهاجمة اللغة العربية والدعوة إلى العامية :

اللغة العربية اختصها الله لغة للقرآن الكريم ، وخصها مرة أخرى لتكون لغة أهل الجنة ، وخصها أيضا لغة لرسوله الكريم ﷺ. ولذلك فقد رافقت رحلة الإسلام وانتشاره إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وبها كتب المسلمون على مختلف أجناسهم وديارهم. وأثرت تأثيرا كبيرا في اللغات الفارسية والتركية والأوردية واللغات الأفريقية في شرق أفريقيا واللغة الماليزية.

وكان المسلمون يتطلعون إلى أن تأخذ الدولة العثمانية العربية لغة للدولة. غير أن التحول الذي أصاب تركيا بعد الحرب ، وتغريبها وانسلاخها من العالم الإسلامي دفعها للتخلص من الأثر العربي ـ فعملت على تصفية اللغة التركية من الكلمات العربية ، حيث عقد عدد من المؤتمرات التي قامت بإخراج **١٣٦٥٠** كلمة عربية(٤٥) حلت محلها كلمات تركية وأوربية. ففقدت تركيا تراثا ضخما يتمثل في مئات المجلدات ، في الأدب والنقد والثقافة ، التي كتبت باللغة التركية العثمانية ـ فضلا عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المشابهة كالفاء والحاء والصاد والضاد والظاء والعين. فإن هذه الحروف لايمكن أن تجد في اللاتينية مايصورها بحرف واحد يقوم مقامها.

ومنذ أن اتسع النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي واجهت اللغة العربية مقاومة بعيدة الأثر من اللغات الثلاث : الفرنسية والإنجليزية والهولندية. فقد **قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع اللغة** بين مسلمي العالم بالعمل على :

١ـ نقل كثير من اللغات إلى الحروف اللاتينية وترك الخط العربي وفي مقدمتها اللغة التركية والأندونيسية.

٢ـ شجع لغة محلية أو أكثر في كل بلد إسلامي غير عربي لتصبح لغات قومية. وهذا طبعا يتم على حساب اللغة العربية كالأوردية والسنسكريتية والبنغالية في الهند. واللغات المحلية في أفريقيا.

٣ـ توسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرسمية كما فعل في الهند الإسلامية

---

(٤٥) أنور الجندي ـ الاستعمار ص ٣٥٨. والتراث : مجموعة تجارب الأمة ومعطياتها ومكونات حياتها ، وعوامل التأثير والصياغة في الحياة. فإذا انقطعت الصلة به ، طفت الأمة على السطح ، كالزبد الذي يذهب جفاء ، وضاعت شخصيتها ، وتعرضت للقتل أو البتر.

وبنغلاديش وباكستان وفي غرب أفريقيا ووسطها وشرقها(٤٦).

أما في البلاد العربية فقد عمد الاستعمار إلى **الدعوة لاستخدام العامية** والتحريض على جعلها لغة التأليف والكتابة. كما فعل في الجزائر ومصر وبلاد الشام والعراق وتونس والمغرب.

ففي الجزائر - واجهت اللغة العربية محاولات خطيرة كادت هذه اللغة تمحى من الأساس محوا تاما ، حتى أتيح لجمعية العلماء الجزائرية وقادتها عبد الحميد ابن باديس - والبشير الإبراهيمي وغيرهما أن تعيد بناء اللغة العربية من خلال ثلاث مائة مدرسة أقيمت في المساجد على نحو بارع استطاع بأن يتحقق تحت مدافع الاستعمار وفوهات بنادقه. وكان لذلك أبعد الأثر في التحول التاريخي الذي شهدته الجزائر. وقد أشار إلى ذلك المؤرخ الفرنسي (جاك بيرك) حين قال : « إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا »(٤٧) فقد حاولت فرنسا جهدها لإحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية في اقطار المغرب ، بعد أن عملت على التفرقة بين العرب والبربر عن طريق الظهير البربري(٤٨).

أما في **مصر** بلد الأزهر فقد كانت الحملة أشد. وبدأت عام **١٨٨١م/١٢٩٩هـ** حين اقترح المقتطف كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة(٤٩) ، من غير أن تحدث هذه الدعوة أثرا. ثم هاجت المسألة مرة أخرى **١٣٢٠هـ/١٩٠٢م** حين ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر من الانجليز - وهو القاضي ولمور - كتابا سماه لغة القاهرة وضع لها فيه قواعد ، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب. كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية. فحملت عليه الصحف مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لاتقصد إلا إلى محاربة الإسلام في لغته. وفي ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته

---

(٤٦) انظر - أنور الجندي - العالم الإسلامي ص ٣٥٩.

(٤٧) نفسه ص ٣٦٢.

(٤٨) علال الفاسي - دفاع عن الشريعة ص ١٦٣-١٦٤.

(٤٩) الاتجاهات الوطنية ج٢ص ٣٥٩.

المشهورة على لسان اللغة العربية(٥٠):

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وفي عام **١٩٢٦م/١٣٤٥هـ** دعا مهندس الري الانجليزي ـ السير (وليم ولكوكس) إلى هجر اللغة العربية ـ وترجم أجزاء من الإنجيل إلى ماسماه اللغة المصرية. ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده. فعاد الناس لمهاجمة الفكرة. ولكنها اكتسبت نفرا من دعاة الجديد ، فاتخذوا القومية والشعبية ستارا لدعوتهم وخاصة بعد حركة الكماليين في تركيا. وساعد على انتشارها **المسرح الهزلي** الذي اتخذ اللهجة السوقية ، ثم انتقلت إلى **المسرح الجدي** حين تجرأت عليه وقتذاك فرقة تمثيلية تتخذ اسما فرعونيا وهي فرقة رمسيس. ثم ظهرت الخيالة ـ السينما ـ فاتخذت هذه اللهجة. ولم يعد للعربية الفصحى وجود في هذا الميدان. ثم ظهرت هذه السوقية العامية في الأدب المكتوب فاستعملها كثير من كتاب القصة في الحوار(٥١).

وفي سياسة التعليم التي خططها (دنلوب) في مصر ، واتبعها المستعمرون في أرجاء العالم الإسلامي انحدر وضع **مدرس اللغة العربية** بقدر ماانحدر راتبه ، وأصبح مادة للسخرية ، يتحدث الناس عن جهله ، وتخلفه ، وضيق أفقه ، وفقره وانحطاط مستواه الاجتماعي والفكري وأصبح مادة للتندر في القصص والروايات والمسرحيات والأفلام ، وانعكس ذلك على الوضع المهين على اللغة التي يدرسها ، فأصبحت موضع الإزدراء ، والتحقير والنفور .. وأصبحت الشكوى مرة من صعوبة اللغة العربية ، وأصبح الإنسان يقارن ذلك بما عليه مدرس اللغة الانجليزية ، والنظرة إلى اللغة الانجليزية!!. وتسللت الدعوة إلى **مجمع اللغة العربية** ـ فظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن اللهجة العربية العامة كتبها أحد أعضائه هو عيسى اسكندر المعلوف المعروف بعدائه للعربية الفصحى. والغريب أن هذا المجمع ضم المستشرق جب المعروف بصفته الاستعمارية ، وحايم ناعوم

---

(٥٠) نفسه ج٢ ص ٣٦٠/ ديوان حافظ ج١ ص ٢٥٣.
(٥١) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٣٦٢.

كبير حاخامي تركيا(٥٢). وأعجب من ذلك أن عبد العزيز فهمي باشا ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري **١٩٤٣م/١٣٦٣هـ** ، اقترح كتابة العربية **بالحروف اللاتينية**. وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات امتدت خلال ثلاث سنوات(٥٣). ودعا خلفه توفيق الحكيم في المجمع اللغوي إلى قاعدة **سكن تسلم** ، وتبعا لهذه القاعدة فتح الباب في البلاد العربية في كليات اللغة العربية والآداب لما سمي : التراث أو **الأدب الشعبي** وحضرت فيه رسائل جامعية عليا.

وقد وجدت هذه الدعوى صدى لها في بلاد الشام فمنهم المتطرف كسعيد عقل وأنيس فريحة ، والمتدرج كبعض المهجرين. وقد ردت هذه الدعوى بشدة وفندت مزاعمها(٥٤).

وعلى كل فقد كانت الدعوات الهدامة للغة العربية تستهدف غايتين :

---

(٥٢) وقد سبق أن ذكرنا دوره في إسقاط السلطان عبد الحميد ، وحضوره معاهدة لوزان ، وبعد إلغاء الخلافة انتقل إلى القاهرة ، وكان حلقة وصل بين زعماء اليهود في أوربا وأمريكا ، والسياسيين الانجليز من جهة ،وكمال أتاتورك من جهة أخرى. وأصبح كبير حاخامي القاهرة ، وبقي يخدم الصهيونية إلى آخر حياته ، حيث أقام في بيته بالقاهرة ناد للقمار رصد كل أرباحه للحركة الصهيونية في فلسطين (انظر مذكرات الحاج أمين الحسيني/ مجلة فلسطين ـ العدد ١٤٧/ السنة ١٣ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ، ص ٧)

(٥٣) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٣٦٣. وانظر كتاب (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) ص ٢٠٩-٢١٠.

(٥٤) انظر هذه التفنيدات ـ الاتجاهات ص ٣٧٧-٣٨٠. وقد عمد الدكتور أنيس فريحة (أحد أساتذة التاريخ واللغات السامية في الجامعة الأمريكية) إلى إرجاع فكرة الكتابة العامية بالحرف اللاتيني تحت ستار تسهيل اللغة. وظهر له في هذا الباب : تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد (طبع جونية سنة ١٩٥٢م) فيقول : « ولانرى حلا للكتابة إلا بتبني الحرف اللاتيني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ».

وفي تسهيل اللغة هذا الذي يقترحه فريحة يقترح لأسماء الاشارة (ص ٣٣-٣٤) عددا أكبر من العدد الذي كتبته كتب النحو المدرسية.

وفي كتابه (محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها) و(نحو عربية ميسرة) وفيه ينضح بالحقد على اللغة العربية الفصحى وبالبغض لأهلها وبالتهكم على تراثها والهزء برجالها (انظر الصفحات ١١،١٣،١٨-١٩،٢٢،٢٣،٥٣،٧٣،١٢٣،١٢٥-١٢٦،١٩٤.

وفي الصفحة ١٩٨ يقول : ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟ وماذا سيحل بالأدب القديم : وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد ، سيبقى على ماهو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب »

انظر التبشير والاستعمار لفروخ والخالدي ص (٢٢٥-٢٣٢).

أ- **تفريق المسلمين** ، والعرب خاصة ، بتفريقهم في الدين وفي اللغة والثقافة ، وقطع الطريق على توسع اللغة العربية المحتمل بين مسلمي العالم ، وبذلك لاتتم لهم وحدة.

ب- **قطع مابين المسلمين وبين قديمهم** ، والحكم على كتابهم - القرآن الكريم(٥٥) - بأن يصبح أثرا ميتا كأساطير الأولين التي أصبحت حشو لفائف البردي ، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقا باليا بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه. والحكم على تراثهم كله بالموت لأن هذا القديم المشترك هو الذي يربطهم ويضم بعضهم إلى بعض(٥٦).

وبقي في لبنان من يصر إلى اليوم على اللهجة اللبنانية وعلى رأسهم الشاعر سعيد عقل ، ويسمونها : اللغة اللبنانية. ووصل به التطرف إلى كتابة هذه اللغة بحروف لاتينية وله جريدة أسبوعية محدودة الانتشار والتأثير ، تطبع بالحروف اللاتينية. وأما تمويلها فلك أن تتساءل عن مصدره.

ومنهم أيضا الشاعر موريس عواد الذي يخرج قصائده بهذه اللغة الشعبية كما يسميها ، وخرج حديثا برواية من **١٩٢** صفحة كتب على غلافها : (روايي باللغا اللبناني) وقد سبقه في ذلك تجربة قام بها الشاعر المصري بدر نشأت شقيق د. كمال نشأت(٥٧) . ومنهم الشاعر أحمد سعيد علي ، ترك الإسلام ، وتنصر ، وغير اسمه إلى (أدونيس) ، وقد ركز هذا الشاعر في أشعاره على استخدام قصة مهيار الديلمي الشعوبي القديم ليخدم قضيته المعاصرة(٥٨).

وعلى الإجمال فاللغة العربية تهان وتنقص من عدة جهات حاليا(٥٩).

١- الروايات التمثيلية التي تحكي عبارات السوقة والعقليات الجاهلية. فتحيي ألفاظا كان يجب أن تموت مكانها وتؤذي المسامع باللهجات العامية المنكورة.

٢- الزعماء الذين لايحسنون الفصحى ويحلو لهم أن يتحدثوا إلى الجمهور ساعات طويلة. تختلط كلماتهم العربية والعامية.

---

(٥٥) وهيهات أن يتم ذلك لهم. فالله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه. ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

(٥٦) انظر الاتجاهات الوطنية ص ٣٨٤.

(٥٧) الشرق الأوسط ص ١٩ السبت ١٩٨٥/١١/٢م.

(٥٨) حلمي محمد القاعود - الحرب الصليبية العاشرة ص ١٧.

(٥٩) محمد الغزالي - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص ٩١.

٣ـ الأشخاص الذين يقلدون المنتصر والذين ذابت شخصياتهم ذوبانا تاما ، فيرون من الرقي أن يكون حديثهم بأي لغة إلا العربية.

٤ـ ورجال المجامع الذين يرون العربية تنهار أمام ألفاظ الحضارة المحدثة ومصطلحات العلوم الكثيرة ، ومع ذلك فهم لايحركون ساكنا ، مع أن العربية في خطر حقيقي.

وامتد التلاعب باللغة العربية إلى **لوائح الإعلانات** في الشوارع العامة وأسماء المحلات والمعارض التي تكتب بخطوط عريضة ومليئة بالأخطاء اللغوية ، بعد أن أقصيت من ميادين العلوم ، ولحق أدبها من تشويه وغبن في ميادين الآداب والفنون(٦٠).

وبالرغم من ذلك بقيت العربية الفصحى : رباط وحدة الأمة ، وأداة ارتقاء العلم والحياة.

من أبيات للشاعر / محمد بهجت الأثري العراقي / بعنوان الفصحى (٧٣) بيتا:

أحببتها حب نفسي ، والهوى غرد ... وحبها الروح والريحان والرغد
رفيعة القدر أخت الشمس عالية ... يرى لها فوق عرش الشمس مقتعد
ويدرك القمرين الخسف من سقم ... ونورها دائم الإشراق متقد
سرية ، وكفاها أنها هبطت ... وحيا ، له تخشع الأرواح والجمد
عريقة المولد الميمون : أوَّلها ... مع الخليقة والأخرى لها الأبد

وفي يوم ١٤٠٨/٧/٢٩هـ الموافق ١٩٨٨/٣/١٧م عقد مؤتمر اللغة العربية العالمي الأول بدعوة من جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي تحت شعار: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾. وشارك فيه ممثلون عن تسع عشرة دولة وعدد من العلماء المهتمين باللغة العربية. واستمر مدة ثلاثة أيام.

وتضمنت أعماله خمسة محاور هي :

١ـ دور اللغة العربية بوضعها أداة ربط بين الدول الإسلامية.

٢ـ التنسيق والتعاون في تعليم اللغة العربية بالدول الإسلامية.

---

(٦٠) نفسه ص ١٠٧.

(٦٠م) ألقاها في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة ٥٤ ١٩٨٨م. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد ٣٤ ص ٨٠-٨١.

٣- إسهام غير العرب في نشر اللغة العربية.
٤- وسائل وتقنيات مختلفة في تعليم اللغة العربية.
٥- دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية بين المسلمين.
وقد صدر عن المؤتمر التوصيات التالية :
١- تأسيس اتحاد عام للجمعيات التي تعمل على نشر اللغة العربية في الأقطار العربية والإسلامية.
٢- دعوة الدول العربية والإسلامية إلى تشريع قانون للحفاظ على سلامة اللغة العربية.
٣- دعوة الدول العربية للحفاظ على الحرف العربي في الكتابة ليظل التواصل قائما بين اللغة والدين.
٤- دعوة الدول العربية إلى تخصيص منح دراسية للطلبة المسلمين الناطقين بغير العربية.
٥- دعوة الدول العربية إلى تزويد الجمعيات والمدارس والجامعات المعنية بتدريس اللغة العربية بالكتب والأشرطة ومايلزم ذلك.
٦- الاهتمام بالبحث التربوي في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.
٧- تبادل الوفود والزيارات العلمية بين الجمعيات والمدارس المهتمة بهذا الموضوع.
٨- دعوة الدول الإسلامية إلى إيجاد برامج تعليمية باللغة العربية في وسائل إعلامها المرئية والمسموعة والمقروءة.
٩- قيام جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي بجميع المناهج المؤلفة في هذا المجال من المؤسسات العلمية كافة.
١٠- قيام الجمعية باعداد دليل بأسماء الجمعيات والمراكز والهيئات التي تعني بنشر اللغة العربية.
١١- الدعوة إلى جعل اللغة العربية من المقررات الرئيسية في المدارس الثانوية في الدول الإسلامية.
١٢- مناشدة الصحف في الدول الإسلامية تخصيص صفحة عربية في كل واحدة منها.
١٣- قيام الجمعية بطبع بحوث هذا المؤتمر في كتاب وتوزيعه.
١٤- مناشدة الدول والمؤسسات والمحسنين بتقديم الدعم المالي لهذه الجمعية

لتتمكن من أداء رسالتها.

١٥ـ اعتماد الأعضاء المشاركة في هذا المؤتمر أعضاء عاملين في جمعية نشر اللغة العربية.

١٦ـ عقد مثل هذا المؤتمر في كل عامين في إحدى الدول العربية أو الإسلامية ونظرا لدور المملكة العربية السعودية الريادي في نشر اللغة العربية يأمل المشاركون أن تتبنى احدى الجامعات السعودية عقد المؤتمر القادم.

١٧ـ دعوة الحكومة الباكستانية الموقرة إلى تبني هذه التوصيات عن طريق الاتصال بالدول العربية والإسلامية.

١٨ـ تشكيل لجنة متابعة لهذه التوصيات من قبل الجمعية وعرض نتائج المتابعة في المؤتمر القادم بإذن الله.

٥ـ اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية من الغرب :

وجدت المدارس الأجنبية في بلدان العالم الإسلامي ، وأطلق غلاة المبشرين والقساوسة وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين تحمل معها الآراء النصرانية(٦١).

والواقع أن الاستعمار كان حريصا على توجيه التعليم لتخريج طائفة من المتعلمين يخدمون مصالح الحكومة والشركات ، ويهدف أساسا إلى القضاء على الثقافة الإسلامية بالطعن فيها وإثارة الشكوك من حولها والشبهات في أعماقها.

فسيطر على المدارس الوطنية ـ التي تضم عامة أبناء الأمة ممن يقدرون على التعليم ـ عن طريق رجاله وعملائه الذين تولوا وضع المناهج الجديدة والسهر على تنفيذها وخدمة أغراضها القريبة والبعيدة كالخطة التي رسمها كرومر في مصر ونفذها القس الإنجليزي دنلوب وتلاميذه من بعده ، ولاتزال لها آثار وذيول سيئة تطبع بعض جوانب التعليم المصري ومقلديه في العالم العربي المسلم. فقد استطاع أن ينزع من برامج التعليم الدين وروح الأدب العربي وتاريخ الإسلام وصلة مصر بالعرب والعربية ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية. وفي كل وحدات العالم الإسلامي نجد الهدف نفسه قد أعد بصورة أخرى ففي الهند الإسلامية يحاول التعليم التركيز على الحضارات الوثنية ، وفي تركيا يجري الاهتمام بالتاريخ الطوراني وأمجاد جنكيز خان. وفي أندونيسيا يركز على تاريخ ماقبل الإسلام وكلها محاولات

(٦١) التبشير والاستعمار. فروخ ـ ص ٦٦.

للقضاء على العوامل الجامعة للعالم الإسلامي(٦٢).

وحرص النفوذ الاستعماري أن يجعل من جامعاته ومعاهده مصدرا لتخريج القادة والحكام في العالم الإسلامي. فقد أوصى المؤتمر التبشيري المنعقد عام ١٩٠٦م/١٣٢٤هـ في القاهرة(٦٣) ـ بوجوب إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسية لمناهضة الأزهر والذي قالوا عنه : إنه يهدد كنيسة المسيح بالخطر. (كما سبق). واتبع الانجليز سياسة تتفق مع مثلهم المشهور : «Slow but Sure» أي : « بطيء ولكنه أكيد المفعول ».

فعين اللورد كرومر أول معتمد بريطاني على مصر (المستر دنلوب) القسيس المبشر مستشارا لوزارة المعارف المصرية. فكان في يده السلطة الفعلية الكاملة ، ففتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية مهملة الدين ، ويعين خريجوها في دواوين الحكومة. وأما خريج الأزهر فكان لايجد عملا ، وإذا وجده ففي إقامة الشعائر في المسجد ، وفرق في الراتبين كبير. فأصبح لايذهب للأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصاريف المدارس الحديثة(٦٤).وطبعا هذه السياسة نفسها التي اتبعها الانجليز في الهند المسلمة. وفي الأقطار الإسلامية الأخرى التي ابتليت باستعمار الانجليز.

ولذلك حرصت الجامعات منذ إنشائها على اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية ، فحين قام سعد زغلول ولطفي السيد وزملاؤهما في مصر بإنشاء الجامعة المصرية كان النص الأول من شروط إنشائها : هو ألا تختص بجنس أودين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة الألفة بينهم. فخلت الجامعة من علوم الإسلام(٦٥).

ويقول اللورد لويد ممثل بريطانيا في مصر في حفل كلية فكتوريا بالاسكندرية عام ١٩٢٦م :« إن أبناء هذه الكلية من ثمانية أجناس أو تسعة أجناس مختلفة ... كل هؤلاء لايمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية » فهو يكشف عن الغاية من التعليم البريطاني ـ خلق جيل يؤمن بانجلترا ويتعاطف معها مغضيا عن استعمارها ونفوذها في بلاده(٦٦).

(٦٢) أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ـ ص ٣٣٥.

(٦٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٢.

(٦٤) واقعنا المعاصر ص ٢١٨.

(٦٥) أحمد لطفي السيد ـ مؤلف حسين فوزي النجار ص ٢٦٢/العلمانية/سفر الحوالي ص ٦٠٧.

(٦٦) أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ص ٣٣٨.

والجامعة الأمريكية في بيروت معروفة الأهداف والمرامي(٦٧).

كان التعليم الحديث علمانيا منذ البداية ، وتعدى الأمر المناهج إلى أسلوب التربية وفلسفة السلوك فقد طبق الاختلاط بين الذكور والإناث في معظم جامعات العالم الإسلامي ، وأدخلت التقاليد الغربية المنافية للإسلام في صلب النظام الجامعي ، أو شيدت في إطاره معاهد عليا للرقص والتمثيل والنحت والموسيقى باسم براق ـ الفنون الجميلة ـ فقد قال قاسم أمين : « لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة ـ التمثيل والتصوير والموسيقى »(٦٨). وقد أصبح في مصر وفي غيرها من أقطار العالم الإسلامي جيوشا من هؤلاء فماذا كانت النتيجة ؟!

وأدخلت أنظمة التعليم الإسلامي ـ العلوم ـ بصورتها الغربية المعادية للدين دون تفريق بين دين ودين ، صحيح أن الاستعمار فرض تلك الأنظمة فرضا ولكنها لاتزال بعد رحيله كما كانت أو أشد بل أنها لتطبق في بلاد لم تطأها لمستعمر قدم كتركيا. ودخلت الأفكار الغربية في هذه المناهج:

فالفرويدية تجدها مقررة في أقسام علم النفس في الجامعات قاطبة على أساس أنها نظرية علمية. وإن لم يذكر فرويد.

والداروينية ، تدرسها مناهج العالم الإسلامي على أنها حقيقة علمية في مواد كثيرة كالأحياء والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض سواء ذكر داروين أو لم يذكر.

وفي أقسام الاجتماعيات تدرس نظرية دوركهايم بل يدرس علم الاجتماع بأكمله على المنهج الغربي المبني على أساس لاديني.

وفي أقسام الكيمياء والفيزياء والفلك والطب ... إلخ تدرس مناهج محشوة بايحاءات فلسفية أو وثنية ، في العبارات المسمومة مثل : المادة لاتفنى ولاتستحدث. خلقت الطبيعة هكذا... هيأت الطبيعة.

وكذلك تعمد المناهج إلى تفسير الزلازل والبراكين وسقوط النجوم والكسوف تفسيرا ماديا صرفا ـ فكل المناهج تتصف بالطابع المادي.

وأما المقررات الأدبية البحتة فنجد أنها فاقت المقررات العلمية ، فصيغ

---

(٦٧) التبشير والاستعمار ص ٩٥ ـ ١٠٩.

(٦٨) كتاب (قاسم أمين) ـ ماهر حسن فهمي ـ ص ٣٩.

التاريخ(٦٩) في قالب غربي مقسم إلى ثلاثة عصور كبرى :

العصور القديمة ، والعصور الوسطى ، والعصور الحديثة.

وكلها تبين أهمية الحضارة الأوربية وتغفل الحضارة الإسلامية المميزة. كما تخفي هذه المناهج الاستعمار الأوربي وخاصة في العالم الإسلامي. والعالم الجديد. وتظهر الأوربيين بمظهر رسل الحضارة ، وأهل الفكر والعلم. وأن الحضارة الأوربية هي خلاصة الحضارات وأهمها ، ولاتتقدم الأمم إلا باحتذائها ، وأخذها.

كما حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين وسموم المبشرين وكتبت بأسلوب شديد التأثير بالأساليب الغربية التي تفسر التاريخ تفسيرا ماديا أو فلسفيا خاصا أو اقتصاديا ، وكتب التاريخ الإسلامي على شكل سلسلة عنيفة من الصراعات والدسائس والفتن وأغفلت الدعوة الإسلامية تماما ، ودور المسلمين في الرقي البشري ، وماقدمته الحضارة الإسلامية في انتشال الأمم من وهدة الجهل والإنحطاط والجاهلية.

ونجد في كتب التاريخ إحياء الثغرات الإقليمية الجاهلية وعرضها من زواياها البراقة التي تغري باعتناقها والإعتزاز بها والإهتمام بمعرفته كما حدث بالنسبة لتاريخ الفراعنة والأشوريين والسومريين والبابليين والفنيقيين والكنعانيين وغيرهم .. وأخطر من هذا أن المناهج تقوم بنصب مثل عليا جديدة أمام أجيال المتعلمين المسلمين فتعرض لهم تاريخ أوربا وحياة أبطالها وعلمائها ومذاهبها الفلسفية والاجتماعية ونظرياتها العلمية بطريقة لامعة جذابة ليتم استقطاب المسلمين عن دينهم بإحدى الطريقتين(٧٠) :

أـ الاعتزاز بما قبل الإسلام وفي هذا فرقتهم وتباعدهم.

بـ طريق الفناء في الحضارة الغازية وفي هذا محوهم وردتهم ، وحتى مادة المطالعة فكأنما هي ملخص موجز للغزو الثقافي الغربي إذ تحوي موضوعات منوعة

---

(٦٩) لقد دعا الإسلام إلى الوعي بالتاريخ الماضي والقائم جميعا وصولا إلى الحتمية الوحيدة وهي الحياة الآخرة ، التي تكون هذه الحياة الدنيا منطلقها ومجالها العملي وتكون هي المقر الأخير بالحساب والجزاء ، ومن هنا فإن للإنسان دوره في صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وإنشاء الحضارة وله أيضا مسئوليته عن الوجهة التي يتجه إليها في هذا العمل. (الجندي التحديات ـ ص ٩٦).
وللتاريخ الإسلامي عصوره : ماقبل الإسلام ـ الجاهلية ـ وعصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، وعصر الدولة الأموية ، وعصر الدولة العباسية ، وعصر الدولة العثمانية .. ويتصل تاريخ الإسلام برسالة الأنبياء السابقين وتاريخهم!

(٧٠) فتح الله ص ٧١.

يجمعها الإعجاب بالغرب وتمجيد حضارته ورجالها والإقليمية والطبقية ، وتخلو من التصورات الإسلامية والقيم الإيمانية إلا قليلا.

٦ـ استيراد المذاهب اللادينية في الفكر والأدب :

كان من أخطر الأدوات العصرية التي اعتمد أعداء الإسلام عليها **الصحافة** باعتبارها أكثر شيوعا وأبعد تأثيرا سواء كانت محلية أو مستوردة مجلوبة من وراء البحار والحدود ، تحمل للمسلمين قيما جديدة وتحفل بضروب من الأفكار المخربة وأحاديث الجنس الفاضحة والصور العارية والقصص البذيئة والمقالات والبحوث التي تتناول كثيرا من المقدسات بالنقد والتجريح في غير ما حرج(٧١).

وليس من قبيل الصدف أن تنشأ الصحافة في بلاد الإسلام على يد **النصارى** ففي مصر قلب العالم الإسلامي نشأت الصحافة على يد الموارنة النصارى ، فدار الأهرام لآل تقلا ، ودار الهلال لآل زيدان ، ودار المقطم لآل صروف. وازدهرت هذه بحماية الحراب الانجليزية ، وعاثت فسادا وتشويها لكل القيم في ظل الاحتلال(٧٢).

يقول جب : « وللوصول إلى هذا التطور البعيد.. يجب ألا ينحصر الاعتماد على التعليم في المدارس ـ بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأي عام والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة ». ثم يقول : « الصحافة هي أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي »(٧٣).

وبالصحافة سارت النهضة الفكرية والأدبية الحديثة مسارا غريبا حتى آل الأمر إلى الواقع الفكري والأدبي المعاصر ، فنقلت الداروينية والفرويدية إلى مجال الأدب بطريق الترجمة أولا ثم الدراسة المستفيضة ، كما استورد المسلمون المذاهب الفكرية الحديثة مثل الإلحاد والشك واللاأدرية واللامعقول .. فعملوا بذلك على تفريغ الكلمة العربية والحرف العربي من مدلوله ومعناه باسم الرمزية وباسم العقل الباطن وباسم القاموس الخاص بالمفكر أو الأديب(٧٤) وتعرض الأدب إلى ظاهرة التقسيم والتجزيء.

---

(٧١) فتح الله ص ٨٤.

(٧٢) انظر : محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ص ٢٣٨ـ٢٤٢.

(٧٣) انظر الاتجاهات الوطنية ج٢ص ٢٠٣ـ٢٠٥ عن وجهة الإسلام.

(٧٤) د. عدنان زرزور ـ قضية ورأي ـ الشرق الأوسط ص ١٥السبت ١٩٨٥/١٠/٢٦م.

وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة إسماعيل حمد أدهم (**ت عام ١٣٥٣هـ/١٩٤٠م**) وهو مستعرب من أصل مزيج تركي روسي ، كان على صلة بالاستشراق الروسي. وجاء إلى مصر من تركيا بعد إعلان العلمانية وحاول نشر الإلحاد فيها : فألف رسالة صغيرة عنونها : لماذا أنا ملحد؟ وطبعها في مطبعة التعاون بالاسكندرية بين فيها أنه من جماعة : المجمع الشرقي لنشر الإلحاد(٧٥).

وأما إسماعيل مظهر (**ت١٣٨٢هـ/١٩٦٢م**) فقد ركز على فكرة الدراونية والأصل الحيواني للإنسان(٧٦) في مقالاته فيقول بخبث وتلاعب بالألفاظ :

« اكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الإنسان والجن هي أن يعبدوا الله، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة(٧٧) ، إذ لو صح هذا ، إذن لاعتقد بجانبه بأن الله في حاجة لأن يعبده الإنس والجن! ولظهر النظام الكوني في مجموعه بمظهر شيء ما خلق ليعضد الحياة الإنسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله ، وهذا في معتقدي أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الإنسان »(٧٨).

وتحرر منصور فهمي (**ت عام١٣٧٨هـ/١٩٥٨م**) في أطروحته : (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها بإشراف المستشرق اليهودي ليفي برول) من الإلتزام بحقيقة الوحي في تفسير سلوك النبي ﷺ وعلاقاته وتشريعاته(٧٩).

وطرح الشيخ علي عبد الرازق قضية العلمانية لأول مرة في صميم الفكر الإسلامي في كتابه الإسلام وأصول الحكم ، ولاترجع خطورة الكتاب لدقته في البحث ، فالكتاب يمتاز بجمال أسلوبه أكثر من امتيازه بالتزام المنهج العلمي ، فهو يعتمد على المستشرقين فيما لايوثق بهم فيه ، ويفرط تفريطا ظاهرا في الرجوع إلى المصادر العربية الأصيلة على كثرتها وأهميتها وتوافرها(٨٠). ويكثر من وضع الفرضيات

---

(٧٥) العلمانية ـ سفر ـ ص ٦١٣.

(٧٦) انظر نفسه ص ٦١٤.

(٧٧) مخالفة صريحة لقوله سبحانه وتعالى ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

(٧٨) العلمانية ـ سفر ـ ص ٦١٤.

(٧٩) الجندي ـ العالم الإسلامي ص ٣٤٣/د.محمد جابر الأنصاري تحولات الفكر ص ٢١ والأطروحة بالفرنسية سنة ١٩١٣م ولم تترجم للعربية.

(٨٠) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٨٥.

والشيخ علي خريج أزهري وقاضي شرعي. أصدر كتابه ١٩٢٥م بعد أن أصدرت الحركة العلمانية الكمالية كتيبا بررت فيه لجوءها إلى العلمنة ببعض المبررات المستمدة من مباديء الإسلام ذاته. د. الأنصاري ص ٢١.

التي تنقلب بعد قليل عنده إلى نظريات مسلمة ، وهو جريء وعنيف في مصادمة عواطف الناس وفي تحدي مشاعرهم وفي التشكيك الساخر أحيانا ـ فيما تطمئن إليه نفوسهم دون أن يقدم الأدلة القوية الواضحة على مايذهب إليه. وقد صدر الكتاب في ظروف إسلامية حرجة بعد سقوط الخلافة العثمانية. وخطورة الكتاب في الواقع تكمن أنه استند لأول مرة في التاريخ الفكري الإسلامي لتبرير العلمانية ضمن إطار الإيمان الديني ذاته وليس من منطلق العلمانية الخالصة المنافية للدين. وفي هذا تكمن خطورة أفكاره.

كما أصدر الدكتور طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م مستخدما منهج الشك الديكارتي والنقد التاريخي الأوربي في غربلة الروايات والنصوص الدينية بما في ذلك آيات القرآن الكريم. وهنا تكمن خطورة هذا الكتاب وليس في مجرد تشكيكه بمصادر الشعر الجاهلي. ومن هذا المنطلق كان طه حسين يؤكد وقتها أن العلم في ناحية والدين في ناحية أخرى وأن التوفيق بينهما محال(٨١).

واستمرت أفكار الغرب المنحرفة تظهر في الأدب العربي من إسماعيل مظهر إلى لطفي السيد ومنصور فهمي وأمين الخولي وطه حسين إلى صادق جلال العظم(٨٢) ، تخفى بعضهم تحت أقنعة البحث العلمي أو التمذهب الأدبي حتى لايصدم مشاعر المسلمين فتنصرف عن إنتاجه وبعضهم هاجم مشاعر المسملين وعقيدتهم بكل جرأة وصراحة ، كما سبق ، بل أن بعض الأدباء في محاضراتهم وكتاباتهم زيفوا التاريخ ووضعوه في إطار عجيب من الأفكار المتناقضة المنحرفة كجورجي زيدان في رواياته عن تاريخ الإسلام. والدكتور لويس عوض المستشار الثقافي للأهرام إذ جعل ـ في محاضراته بمعهد الدراسات العربية ـ المعلم يعقوب العميل الذي استغله المحتل الفرنسي في غزو نابليون مصر بداية القومية المصرية والكفاح القومي ، وهو نفسه الذي كون فيلقا لضرب الشعب المصري وتحطيم ثورته ونهب أمواله. كما يعتبر الحملة الفرنسية هي بداية تاريخ مصر القومي وتحريرها(٨٣) ، ويشيد الدكتور عوض بمحاكمة الفرنسيين لسليمان الحلبي قاتل كليبر ، ويفسر الصراع أثناء الحملة الفرنسية بأنه بين قوتين أجنبيتين : الفرنسيون

(٨١) انظر / محمد الخضر حسين شيخ الأزهر ـ نقض الشعر الجاهلي لطه حسين.

(٨٢) في كتابه نقد الفكر الديني ـ انظر : الميداني ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم.

(٨٣) كشك ـ الغزو الفكري ص ١٣٢، انظر الجبرتي ج٣ ص ١٥.

والأتراك. الأول يحمل مباديء الثورة الفرنسية ويسعى لإيقاظ القومية المصرية ، والثاني يختص بكل الموبقات والصفات الكريهة.

كما وضع السيد عمر مكرم ومحمد الكريم والمحروقي وحسن طوبار وسليمان الحلبي في كفة والجنرال يعقوب وفرط الرمان في كفة أخرى على قدم المساواة بل يفضل من كان في جانب فرنسا لأنهم يمثلون حسب رأيه الجانب الأفضل لأنهم كانوا مع التطور .. مع التاريخ .. مع بعث القومية.. فيعقوب هو حامل بذور القومية المصرية.. ويستحق أن يوضع كما يقول الدكتور : مع محمد علي وعلي بك الكبير وعبد الناصر لأنهم كانوا جميعا أدوات في يد هذا الشعب العظيم(٨٤) !!.

وفي المسرحيات تمسخ القيم والمباديء ففي مسرحية لعبد الرحمن الشرقاوي مثلا :

لم يذكر من أهداف المقاتلين الجزائريين شيئا من الإسلام والعروبة - بل يعري الثورة الجزائرية من حقيقتها حين يصر على أن أهدافها : الحرية - الإخاء - الأمن والحب - وحياة أفضل - بل ويجعل البطلة الفرنسية العاهرة سيمون هي بطلة القصة - مات زوجها في الهند الصينية فجاءت إلى الجزائر لتقوم بأهم عمل ثوري في المسرحية - وتنشد هذه : من أجل فرنسا ماأصنع ! وتتعانق مع هند الجزائرية.

ويشتد في المسرحية الحرص المبالغ فيه على كرامة فرنسا وشرفها ، وإظهار الحنان المسيحي من الفرنسيين - أما الإسلام فلا شيء في حياة الثورة الجزائرية. إلا للجواسيس والمجانين.

والمسرحية تحجب طبيعة الحرب الصليبية التي تشنها فرنسا ممثلة الغرب الصليبي ضد الثورة الإسلامية الجزائرية وجهادها(٨٥).

وظهرت أيضا الأفكار الغربية المنحرفة عند الشعراء وخاصة شعراء العراق كالرصافي والزهاوي.

فامتلأ ديوان جميل صدقي الزهاوي (ت عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦) بالأفكار الإلحادية التي لاتخرج في جملتها عن نظرية دارون فمن رباعياته :

ما نحن إلا أقرد من نسل قرد هالك
فخر لنا ارتقاؤها في سلم المدارك

(٨٤) نفسه.

(٨٥) انظر نفسه ص ٨٧-١٢٣.

ويتأثر بنظرية هيجل الأثيرية في قوله :

ولعـــل الأثير في كل أرض وسماء كاللـــه في التـــأثير
ولعل الذاتين واحدة في الأصل والخلـف جـاء في التعـــبير

وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار في الفكر والشعر والصحافة التمهيد لانتشار الأفكار المادية ولاسيما الشيوعية وتغذيتها بروح الشك العام في كل شيء تقريبا حتى أصبح الشباب المتعلم في العالم الإسلامي فريسة الشكوك القاتلة والوساوس الشيطانية فانتظم كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية أو القومية وغيرهما من الأحزاب اللادينية لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبحت الاشتراكية موضة العصر كما يقولون.

فبعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا عام **١٩١٧م/١٣٣٦هـ** تحولت للاهتمام بالشرق وأسست الأممية الثالثة عام **١٩١٩م/١٣٣٨هـ** وهو التاريخ الذي اتخذ منه اليساري اللبناني يوسف يزبك تقويما جديدا محل التاريخين الميلادي والهجري. وقد انحصرت الأفكار الشيوعية قبل ذلك في نطاق العلمانيين النصارى ، ثم بدأت تتسلل في أوساط المتعلمين المسلمين على نطاق ضيق أولا فقام الكاتب المصري مصطفى حسنين المنصوري **(ت عام ١٩٤٦م/١٣٤٨هـ)** بتأليف كتابه : تاريخ المذاهب الاشتراكية ليصبح بهذا العمل أول اشتراكي مسلم في العالم العربي. وتأسس الحزب الاشتراكي المصري عام **١٩٢٠م/١٣٣٩هـ. وترجم خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري البيان الشيوعي عام ١٩٣٣م/١٣٥٢هـ.**

وبدأت أفكار القومية تغزو المسلمين بمفهوم علماني على أيدي النصارى أولا إلى أن تبناها ساطع الحصري **(١٨٨٠-١٩٦٨م/١٢٩٨-١٣٨٨هـ)** الذي أنكر أن يكون الدين عنصرا في القومية(٨٦) ، وتكونت الأحزاب ذات الأفكار المستوردة كالحزب القومي السوري عام **١٩٣٢م/١٣٥١هـ وتبلور حزب البعث عام ١٩٤٠م/١٣٥٩هـ.**

وساهمت المذاهب الأدبية مع المذاهب الفكرية في انزلاق المسلمين إلى التردي الفكري فالرومانسية وجدت لها صدى في روايات جرجي زيدان التي شوه فيها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الانجليز ، وترجمت أعمال معظم أدباء أوربا المشهورين من شكسبير إلى تولستوي ومع أن بعضها روائع إنسانية فقد كان

---

(٨٦) خدوري د. مجيد ـ الاتجاهات السياسية في العالم العربي ـ الترجمة العربية ص ٢٠٨.

الاتجاه الإباحي هو الطاغي على الترجمات كما في أعمال الكسندر دوماس وأميل زولا وأناتول فرانس. وظل الاتجاه الإباحي يسيطر على حركة الترجمة تقريبا تحت ستار الواقعية حتى الحرب العالمية الثانية. ثم ظهرت أصداء اللامعقول على أثر نضوجها في الغرب حينذاك. كما ظهرت الكتابة الأسطورية التي اتخذها سارتروكامو أسلوب التعبير عن فلسفة الضياع والعبث ، إلا أنهما استخدما أساطير اليونان ، أما العرب أمثال طه حسين (في على هامش السيرة وعلي وبنوه) وتوفيق الحكيم (في أهل الكهف وزينب ...) فقد استخدموا التاريخ الإسلامي والقصص القرآني.

وقد أسهمت وسائل الإعلام ـ من صحافة وتلفزيون وإذاعة ومسرح التي يدير معظمها أناس علمانيون ـ اسهاما قويا في تنمية الاتجاه الإباحي في الفكر وتعميمه وبالتالي في هبوط الأدب أسلوبا ومضمونا كما في كتابات إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وشيعتهما نثرا ، وأعمال نزار قباني وزمرته شعرا.

وظهرت شعارات علمانية تطالب بفصل الأدب عن الدين بل عن الأخلاق ، فنجد شعارات : الفن للفن ، الأدب غير الملتزم ، والأدب للشعب ، والأدب للواقع.. ومن الذين نادوا بفصل الأدب عن القيم الدينية سلامة موسى.

وكما برزت الوجودية(٨٧) في انتاج أنيس منصور والماركسية في كتابات نجيب محفوظ ، برز الاتجاه الضائع الناهج نهج اللامعقول في شعر : بدر شاكر السياب العراقي والشاعر اللبناني الملقب أدونيس واسمه الأصلي أحمد سعيد علي والذي تنصر.

والاتجاه إلى اللامعقول لم يفض إلى الثورة على الأدب الأصيل في مضمونه ومحتواه بل تعداه إلى الشكل والأسلوب فظهر مايسمى بالشعر الحر الذي بدأه باكثير وبدر شاكر السياب بترجمة الشعر الأوربي إلى عربية منثورة ، بعد الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كان يتسلل فيه إلى العالم العربي صراخ وعويل من ركام أوربا شعرا ونثرا وقصصا ملأى بالثورة والنقمة والشبق وبكل مايدهش ويثير.

ومن الذين اشتهروا بهذا الشعر نزار سليم وحسين مروان وبلندر الحيدري وعبد الوهاب البياتي ورفعت الجادرجي وحسين مروان في العراق ونزار قباني في الشام

---

(٨٧) انظر زيارة سارتر وعشيقته سيمون إلى مصر / الغزالي ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص ٣٦-٣٧.

ومحمود درويش في فلسطين المحتلة.

وفيما يلي قطعة من هذا الشعر تبين انسلاخ الشاعر من عقيدته وموطنه ، والقطعة للشاعر محمد الفيتوري يقول فيها:

نار خطايانا
تسيل في حنايانا
فلنتكيء على عظام موتانا
ولنصمت الآنا
برج كنيسة قديمة وراهب قلق
وغيمة تشد قدميها وتعبر الأفق
ورجل بلا عنق ...
وامرأة على الرصيف تنزلق
وقطة في أسفل السلم تختنق
وصوت ناقوس يدق
يرسم دورة على الفضاء ، ويدق

يقول الشيخ محمد الغزالي : بعد أن أورد هذا الشعر... ودعك من أضغاث الأحلام التي ينقلك إلى جوها هذا الكلام المفكك ، ودعك من تقطع الروابط العقلية بين هذه الألفاظ المتصيدة فهي كما قيل : سمك ، لبن ، تمر هندي..

ولكن الشيء الذي لاتدعه والذي يثير انتباهك حتما هو جراثيم الاستعمار الثقافي أوالغزو الصليبي(٨٨) الذي سيطر على هذا الشاعر الهائم ، فهو في القاهرة المدينة المعروفة بشمسها الزاهية ، ومآذنها السامقة وصبغتها الإسلامية الأولى ، ولكن التبعية الفكرية والنفسية الغالبة على هذا الشخص التائه جعلته لايرى إلا الغيوم وأبراج الكنائس والرهبان القلقين ورنين النواقيس وكأنه في لندن أو روما لافي مصر(٨٩).

---

(٨٨) كانت فرنسا قد عملت لمدينة الجزائر شعارا انتشر في العالم كله بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء منتصرا على هلال صغير منكس فوق البحر. يشير بذلك إلى انتصار الصليبية على الإسلام (عمار أوزيجان ـ الجهاد الأفضل ص ٢٩-٣٠).

(٨٩) الغزالي ـ حصاد الغرور ص ١٩٤-١٩٥ / وانظر مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص ٩٧-١٠٦.

وقد لجأ بعض الأدباء إلى الغوص ، بهدف تسميم أفكار الشباب باسم الحداثة التي أحيطت بهالة إعلامية كبيرة. وهي مذهب فكري غربي ، تلت الرمزية في الظهور ، ووجد هذا المذهب من يدعو إليه في عالم الإسلام ،

ويدعو إلى تغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد علاقات لغوية جديدة تشير إلى مواضع لم تعهدها من قبل ... وتغيير وظيفة الحواس من طريق اللغة الشعرية بحيث لايستطيع القاريء أو السامع أن يجد المعنى الواضح المعهود في الشعر الرمزي ، بما يحويه من تمرد الشعر على التراث ، وعلى الماضي ، وقطع أية صلة له مع المباديء الأخلاقية والدينية...

ومن هؤلاء الكتاب : أدونيس المنظر الفكري الأول للمحدثين العرب ، وصاحب كتاب (الثابت والمتحول) الذي وصفه بعضهم بأنه انجيل الحداثيين. وقد ركز فيه على رموز الإلحاد والزندقة وأهل البدع في التراث ، واعتبرهم أهل المعاناة في سبيل حرية الفكر وتجاوز السائد.

ومنهم محمد جبر الحربي ، ومحمد التبيتي ، وعبد العزيز المقالح ، والبياتي ، وصلاح عبد الصبور ، وحسين مروة الأب الروحي للحزب الشيوعي اللبناني والذي قتل يوم ١٤٠٧/٨/١٠هـ في لبنان ، وعبد الله العروي ، ومحمد عابد الجابري ، وأمل دنقل ، وبدر شاكر السياب ، ومحمود درويش ، وأحمد الربيعي ، وقاسم حداد. وغيرهم.

واستبعد الحداثون العرب الدين من معاييرهم وموازينهم ، إلا أن يكون ضمن مايسمونه بالخرافة والأسطورة. فهم يسعون من خلال الغموض إلى إنشاء وإيجاد واقع فكري جديد منفصل ومقطوع عن واقع الأمة الفكري ، وعن ماضيها العلمي والعقلي والأدبي ، في الشكل والمضمون. فهم يحطمون الإطار العام للغة العربية لتحويلها مع الزمن - من خلال استبدال مفرداتها وتراكيبها ومعارفها - إلى لغة جديدة لا صلة لها باللغة العربية الفصحى المعروفة ، تماما كما حصل للاتينية التي تحولت بهذه الطريقة إلى لغات متعددة.

وقصائد أهل الحداثة وكتاباتهم لاتخلو من الحط من الدين ، والنيل من الرسول الكريم ﷺ ، والحط من القرآن الكريم ، والتاريخ. ومن نشر الرذيلة ، وسوء الخلق ، والترويج للأفكار الهدامة. كما في قصائد من ذكرنا من أسماء(٩٠).

---

(٩٠) انظر كتاب الحداثة في ميزان الإسلام - لعوض بن محمد القرني.
تقديم الشيخ عبد العزيز بن باز. وانظر : جريدة المدينة - الملحق الأدبي ١٤٠٧/٨/١٧هـ.

إن ماوصل إليه حرب الفكر هذا أكبر وأشد من القتل لأنها فتنت أجيالا متتابعة من المسلمين ولاتزال - فتنة عارمة وتركتهم على الردة الصامتة البالغة غاية الفكر حين دثروها لهم بثوب زور ودلسوها عليهم باسم التقدم والحضارة ثم بلغت الغفلة غاية مداها حين قابل المسلمون ذلك بالإقبال وكان خليقا أن يستثير فيهم عزائم النزال(٩١) والجهاد.

ورغم هذه الأعراض الفكرية التي غلبت على واقع المسلمين اليوم ، إلا أن الفكر الإسلامي الأصيل بقي حيا وشق طريقه في أوساط الأمة بأصالته حتى اضطر أصحاب الأباطيل أن يغيروا وأن يبدلوا في أساليبهم بل أن ينحنوا في كثير من الأوقات أو أن يتراجعوا عن أفكارهم(٩٢).

---

(٩١) فتح الله ص ٣٠.

(٩٢) مثل **طه حسين** الذي انحنى وغير أساليبه مرارا أمام الفكر الإسلامي. و**محمد حسين هيكل** (ت١٩٥٦م/١٣٧٦هـ) الذي طرح مفهوماته في الأدب الفرعوني وترجم أبحاثا عن النظرية الوضعية لأوغست كونت وألف كتابا عن حياة روسو وشرح فكرته عن الدين الطبيعي - عاد وكتب حياة محمد وفي منزل الوحي وقال في زيارته للمدينة المنورة : « لقد كنا نطلب العلم في باريس فرانت علينا شوائب الغرب ولما عدنا إلى أرضنا وقرأنا تراثنا جاءت العودة وقراءة التراث ورائحة التراب تردنا ، كانت ثقافة الغرب كالرمال غطت الحجر الصلب .. وعودتنا كالريح أزالت الرمال عن قلوبنا ، فإذا الحجر الصلب قلوبنا في مكانها (من مقال بقلم محمد حسين زيدان بعنوان : الدكتور محمد حسين هيكل في ذاكرة الأزهر / الشرق الأوسط ص ١٣ الأحد ٢ ذي الحجة سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥/٨/١٨م).

والدكتور **مصطفى محمود** الذي كتب بعنوان قمة تحرق مقالا تحدث فيه عن دور الصدفة في حياة الإنسان وعلاقتها بالتخطيط وتكلم عن الكوليرا التي أصابت مصر ، وتابع فيها الرواية الانجليزية للسخرية من الحج والحجاج المسلمين وزمزم .. (انظر كشك أساليب الغزو الفكري ص ٤٧).

عاد إلى الإسلام وفي رحلة العودة غرق في التصوف ومتاهات الباطنية (انظر كتابه - القرآن - محاولة لفهم عصري - دار الشروق - بيروت مايو (آيار) ١٩٧٠م).

الداروينية في تفسيره (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) ص ٧٣.

والشجرة - ص ٨٠.

وفكرته عن الجنة والجحيم ص ٨٦. وانظر عن المتصوف والراهب واليوجي ص ١٣٢-١٣٣.

و**خالد محمد خالد** : صاحب كتاب (هذا أوالطوفان) وكتاب (الديمقراطية أبدا). انتقل إلى الكتابات الإسلامية - (رجال حول الرسول) .. ومقالاته القيمة في جريدة المسلمون.

الفصـــل الثاني
واقع العالم الإســـلامي
من الناحيـة الاجتماعيـــة

يستحيل على الإنسان أن ينفرد بنفسه انفرادا تاما وفي هذا آية من آيات الخالق المبدع جل جلاله ، فحاجته إلى غيره حاجة العضو إلى العضو والخلية إلى الخلية فالاجتماع تعبير عن غريزة مستكنة في أعماق نفس الإنسان.

والجماعة صفة لازمة من صفاته ، وإذا وجدت الجماعة وجدت الصلات بين أفراد هذه الجماعة ، وقد نظم الإسلام سلوك الناس والنظام هوالعنصر الثالث في سنة بناء المجتمع ، فلابد إذن أن يتوفر في المجتمع : أفراد وصلات اجتماعية يحددها العرف المتبع وأنظمة تضبط سلوك الأفراد وتبيح لهم الانطلاق في ميدان وتكبح جماح انطلاقهم في ميدان آخر. وينبثق عن كل ذلك سلطة يفترض احترامها(١) ولابد من الإدراك المتبادل والشعور بالإنتماء إلى هيئة واحدة وهذا الشعور لايتم إلا بوجود مبدأ يصدر عنه أفراد الجماعة وعقيدة يشترك جميع الأفراد في احترامها والحفاظ عليها والدفاع عنها وهذه العقيدة المشتركة هي العنصر الرابع في بناء المجتمع وهي أعظم العناصر السابقة أهمية وأكبرها خطرا ذلك أنها تتحكم فيها كلها وتوجهها جميعها الوجهة التي ترضاها ، فهي التي تحدد الصلات الاجتماعية وهي التي ترسم نهج السلوك ، وهي التي تضع قواعد المجتمع وتقيم نظمه وتهدي إلى مثله(٢).

والمجتمع الإسلامي هو ذاك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه السماوية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة ولهذا المجتمع وإن تكّون من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات موحدة(٣) ففيه مقومات المجتمع القوي المتماسك ، بطابع واضح متميز فلو أن إنسانا سار في العالم الإسلامي وتنقل في تطوافه من مدينة جاكرتا متجها إلى أقصى الغرب حتى بلغ مدينة طنجة ومر في مسيرته هذه على مختلف البلاد الواقعة على محور جاكرتا ـ طنجة لوجد ظاهرات

(١) د. محمد أمين المصري ـ المجتمع الإسلامي ـ ص ١٢-١٤.

(٢) نفسه ص ١٦.

(٣) نفسه ص ١٧.

اجتماعية تكاد تسيطر علي هذه البلاد جميعها(٤).

فقد جاء الإسلام بتربية الإنسان تربية فطرية سليمة فأقام بناءه على تقوى الله ونظر إلى الكون والإنسان والحياة نظرة كلية شاملة لجميع نواحيها ، وأعطى تفسيرا مقنعا لما قبل الحياة ومابعد الحياة ، وتظهر هذه النظرة الكلية بوضوح في :

١ـ أن الإسلام جاء لجميع البشر : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾(٥).

٢ـ اهتم الإسلام بالناحية المادية والروحية في حياة الإنسان ، واهتم بالحياة الدنيا والآخرة. ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا** ﴾(٦).

٣ـ اهتم بالإنسان كفرد وعضو في مجتمع ، كما اهتم بالمجتمع(٧).

ورسم الإسلام مثلا أعلى غير ذلك المثل الأعلى للجاهلية فالشجاعة والمروءة التي لاحد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والولاء التام للقبيلة ، والثأر ، قام الإسلام بوضع قيم أسمى منها : فالخضوع لله والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه والتحلي بالصبر بما يحمله من معنى الشجاعة وضبط النفس وتحمل المشاق في سبيل بلوغ الهدف وإخضاع المنافع الشخصية لأوامر الله ، والقناعة وعدم التفاخر بالتكاثر بالأموال والأولاد ، وتجنب الكبر والعظمة(٨). كل ذلك من مقومات الشخصية المسلمة المتميزة المتوازنة فأقام بذلك نظاما إسلاميا يتصل بجميع نواحي حياة الإنسان وتنبع قيمه من التقوى والإيمان بهذه القيم باعتبارها جزءا من العقيدة التي تنظم حياة الفرد والمجتمع ، وفي ظل هذا النظام يكون سلوك الإنسان صادقا ونابعا من الإيمان بصحة مايقول أو يفعل على أساس أن السلوك السوي يؤدي إلى مرضاة الله ويؤدي في الوقت نفسه إلى سعادة المجتمع ، وقوله وسلوكه مع الناس ومعرفة قدر نفسه ، فيوجد التوازن في النفس والمجتمع ويبتعد عن الازدواجية المقيتة.

ومن القيم الاجتماعية التي بثها الإسلام قيم المساواة والحق والعدل والرحمة

---

(٤) نفسه ص ٣٣.

(٥) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٦) سورة القصص الآية ٧٧.

(٧) وبذلك يتميز الإسلام عن الاشتراكية التي تهتم بالمجتمع دون الفرد وتنظر إلى الفرد كسن في دولاب ، فغاية المجتمع تبرر الوسيلة . وعن الرأسمالية التي تهتم بالفرد دون المجتمع. ولامانع لهذا الفرد أن يستعمل كافة الأساليب للوصول إلى أهدافه ـ فالغاية تبرر الوسيلة.

(٨) انظر ماقاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لنجاشي الحبشة / ابن هشام ج١ص ٣٣٦.

والأمانة والإحسان والبر والوفاء وحسن الصلة في المجتمع ، وأقر قيما سلوكية تفصيلية تؤدي إلى التوازن الاجتماعي والاستقرار النفسي كالاستئذان في دخول الأبواب ، وتأدية التحية ، والقول الحسن ، وعدم السخرية من الآخرين ، وحث على تحمل المسئولية.

ولن يعوزنا بالتدليل على كل ذلك من كتاب وسنة فأينما توجهت تجد الدليل ، وتاريخ المجتمع الإسلامي العملي يثبت ذلك. ويكفي في هذه العجالة الأدلة السريعة الآتية :

قال تعالى : ﴿ **وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾(٩).

وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾(١٠).

وقال تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾(١١).

وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾(١٢).

وقال تعالى : ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾(١٣).

وقال ﷺ :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(١٤).

وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »(١٥).

وقال « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(١٦).

وجعل ﷺ : المجتمع في تكافله وتضامنه وعمق مسئوليته : « مثل قوم استهموا

---

(٩) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(١٠) سورة الحجرات الآية ١٠.

(١١) سورة الحشر الآية ٩.

(١٢) سورة التوبة الآية ٧١.

(١٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

(١٤) متفق عليه / البخاري ـ أدب ٢٧، مسلم بر ٦٦، ٦٧.

(١٥) أخرجه الطبراني في الأوسط ، والحديث ضعيف / انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني مجلد١ ص ٣٢١ رقم ٣١٠.

(١٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد.

في سفينة »(١٧).

ومن هنا جاء وصف الأمة الإسلامية (خير أمة أخرجت للناس) وأنها (أمة الوسط) قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾(١٨).

وقد بقي المجتمع الإسلامي سليما قويا ، (وللمسلم حرمة كبيرة) يقول عمر ابن الخطاب وهو يوصي أحد قادته بالجيش : وأن رجلا أحب إلي من مائة ألف دينار(١٩). ويقول : « وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم »(٢٠) عندما استأذنه معاوية في غزو الروم بحرا.

وفي زمن عمر بن عبد العزيز تجمع الزكاة فلا يجد المسلمون من يأخذها(٢١) ، وفي زمن المهدي العباسي لاتجد سائلا(٢٢) في أرجاء الدولة..

وفي ظل المسلمين في الهند تفتح المطاعم المجانية لجميع سكان الهند الهنادكة والمسلمين عند حدوث المجاعات فتمر المجاعات دون حدوث هزات إجتماعية!.

نعم بقي المجتمع الإسلامي قويا إلى أن تضافرت العوامل الكثيرة كما سبق عليه ، فلجأ إلى العزلة وأصابه الجمود ، والجمود كما سبق وقلنا ، نوع من أنواع المحافظة على الذات ، وأصيب كنتيجة حتمية للفقر والمرض والجهل في أخلاقه وتقاليده وعاداته ، فغلبت عليه الأعراف الجاهلية والعادات المستحدثة على الأخلاق الإسلامية الأصيلة ، غير أن الناس بحكم العاطفة الإسلامية الموروثة ، وبما جبلوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق ، كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين ، أو على الأقل يلتمسون لها فيه أصولا ، ورسخ ذلك الإنحراف المتمسح بالدين حتى أصبح هو الواقع المألوف الذي كان لدى الناس استعداد للوقوف في وجه من يحاول تغييره سواء أكان مجددا إسلاميا مخلصا أو متجددا مفسدا أجنبيا ، وظهرت محاولات إسلامية جادة مخلصة للنهوض بهذا المجتمع على أسس إسلامية صحيحة مثل : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدعوة السنوسية وجمعية العلماء في الجزائر والسلفية في المغرب المرتبطة بابن حنبل وابن تيمية وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب على حد تعبير العلامة علال

(١٧) رواه البخاري والترمذي وأحمد.

(١٨) سورة آل عمران الآية ١١٠.

(١٩) الطبراني ج٤ ص ٢٥٤ / البداية ج٧ ص ١١٩.

(٢٠) الطبري ج٤ ص ٢٩٠.

(٢١) فقد أغنى عمر الناس ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٣٥.

(٢٢) الكامل ج٥ ص ٧٣.

الفاسي(٢٣) ودعوة السرهندي والدهلوي في الهند ، وحركة شركة إسلام ومجلس العلماء والجمعية المحمدية في أندونيسيا ، وحركة عثمان دنفديو ، وحركة أحمدو بللو في إفريقيا الوسطى والغربية وحركة الإخوان المسلمين في مصر. وغيرها من الحركات على اتساع ساحة العالم الإسلامي ، وقد أحدثت هذه الحركات بالفعل تغيرات اجتماعية وتحولات نحو الإسلام ، ولكنها جاءت في عهد أعاصير هبت على هذا المجتمع وأصابته بشدة حين تم خضوع بلاد الإسلام للإستعمار الغربي ، فلم تستطع أن ترد المجتمع الإسلامي إلى أسسه ، فأصابته أعاصير التحلل وسادته الأفكار المتناقضة والازدواجيات في كل أمور الحياة.

فقد شرع المستعمرون في بلاد المسلمين في تنفيذ خطتهم التي كانت ترمي إلى أمرين أساسين(٢٤) :

أولهما : إنشاء جيل متجانس لهم في ثقافتهم ليسهل عليهم الاتصال به والتفاهم معه(٢٥).

والثاني : وهو أخطر الأمرين جميعا أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية ومن الحمية الإسلامية.

وكان لابد لبلوغ هذه الأهداف من إحداث انقلاب جذري في حياة المسلمين يصادم المنهاج الإسلامي في جملته الأساسية بحراسة الجيوش المستعمرة وعلى يد من ربتهم على منهاجها من أهل البلاد.

بدأ احتكاك المجتمع الإسلامي المنحرف عن الإسلام بالمجتمع الغربي الشارد عن الدين في القرن التاسع عشر الميلادي ، ومنذ اللحظة الأولى أحس الغرب ـ المغرور بتقدمه المادي ـ بتفوقه الاجتماعي على العالم الإسلامي الذي لاشك أنه كان لديه من الفضائل مايفتقده الغرب ، لكن نظرة الغالب إلى المغلوب لاتسمح بالرؤية الصحيحة عادة لاسيما والروح الصليبية الحاقدة كانت من ورائها. وبالمقابل أحس المجتمع الإسلامي بالانبهار القاتل واستشعر النقص المرير ولم يتردد الغربيون(٢٦)

---

(٢٣) أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ص ٢٨٨.

(٢٤) فتح الله ص ٦١.

(٢٥) انظر قول اللورد لويد في حفل فكتوريا بالاسكندرية ـ أنور الجندي ـ العالم الإسلامي ـ ص ٣٣٨. ورأي جب ـ الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٠٣ـ٢٠٥. ورأي برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق.

(٢٦) انظر رأي كرومر في الإسلام ـ الاتجاهات الوطنية ص ٢٥٩ـ٢٦٢.

ومن آرائه : « أن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ـ ولكنه مع ذلك أبدي لايسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني ».

في القول بأن سبب تخلف المسلمين هو الإسلام ، فقد استمدوا ذلك من الوهم الذي كان يسيطر على أولئك بأنهم مسلمون حقا . وهكذا كان الطريق مفتوحا لمهاجمة القيم الإسلامية وتدمير مقومات المجتمع من خلال مهاجمة ذلك الواقع المتخلف الذي لايمثل الإسلام ، وكان النموذج الغربي المشاهد الذي فصل الأخلاق عن الدين يزيد الأمر قوة ووضوحا. وقد جهد الاحتلال الأجنبي بشتى الطرق حتى تمكن من تحطيم مظلة الأعراف الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، فانطلقت تسري في أوصالها كل موبقات الحضارة الأوربية حتى وصلت في ظل الاحتلال إلى مرحلة الشيوع والإستعلان ، ثم إلى مرتبة الإستقرار والاستحسان ، ثم إلى درجة الشرعية التي تحميها القوانين الوافدة. ودخل في روع المغلوبين الإنحلال والفساد من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة(٢٧). وقد ظهر هذا الإنحلال في البداية في السلوك الفردي ، فانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ، ثم دب دبيب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الإنحلال ، فتكاسل الناس عن أداء العبادات وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير الشباب وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية(٢٨) فشهد العالم الإسلامي موجة في التغيير الاجتماعي دعيت : **التغريب** : وهو تغيير قيم الأمة ومثلها أي تغيير عقيدتها وثقافتها وأخلاقها ، وبعبارة أوضح إبعاد المسلمين عن دينهم باسم المدنية أو التطور أو التقدم. وقد بدأ التغريب في العالم الإسلامي على يد المستعمرين ومؤسساتهم التبشيرية والاستشراقية أي بالإرساليات. ولكنه وفق الأسلوب الجديد أصبح على أيدي المسلمين أنفسهم من تلاميذ المستشرقين والمبتعثين ، يساندهم في تنفيذ هذا المخطط بعض الحكام من المسلمين وقد اتخذ هذا خطة استراتيجية بعيدة المدى حتى لاتحس الأمة الإسلامية بالهدف البعيد ، بل قد تحس بالأسلوب الذي يجري فيه التغيير وكأن هذا التغيير يحدث تلقائيا ، في مجال الأخلاق والعادات والتقاليد تحت قناع التطور والمدنية والتقدم ومسايرة روح العصر مستخدما وسائل الإعلام

---

(٢٧) فتح الله ص ٦٣.

(٢٨) نفسه ص ٦٤ عن الدكتور إبراهيم اللبان ـ رسالة التربية الدينية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي ـ نشرتها مجلة الأزهر.

المختلفة المسندة إلى غير المتمسكين بالدين. وانعكس هذا التأثير رمزيا في تغيير اللباس ، وارتداء الزي الغربي ، الذي بدأ في القرن التاسع عشر في صفوف الجيش بأمر عسكري ، ثم كان بعد ذلك في قطاع الموظفين المدنيين بأمر حكومي أيضا ، وأخيرا عم اللباس بين المتعلمين من أبناء المدن من غير الرسميين عن طريق العدوى والمحاكاة والتقليد(٢٩). وقد استوردت الأفكار الأوربية مع السلاح والزي(٣٠).

ومن أجل عدم اصطدام الأفكار الجديدة بمشاعر المسلمين يقوم بالاعداد لها والتخطيط جيش من المبشرين الذين درسوا العالم الإسلامي من جميع جوانبه ونواحيه ، وخبراء في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ ، فضلا عن أجهزة المخابرات والإحصاء المختلفة ، فاستغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية ومن الثقافة والأدب واللغة ليسلبوا الإسلام كل مناحي الشخصية وكل أسباب الحياة(٣١) ، لتخرج أفكارهم تحمل شعارات العلمانية والقومية وتحرير المرأة.

وقد أدرك هؤلاء أن لابد لإحداث التغيير الاجتماعي المطلوب من اقتحام حصون المسلمين ـ اقتحام بيوتهم ـ باسم تحرير المرأة الذي سنوليه اهتماما خاصا ، لأنه أهم مظاهر التغيير الاجتماعي وعنه تنشأ كافة الأمزاض الإجتماعية. وقبل ذلك نلخص الآثار التي تركها الاستعمار في العالم الإسلامي من الناحية الاجتماعية لتتضح الصورة. فقد عمل الاستعمار على إضعاف معنويات المسلمين وأفكارهم وتجهيلهم وتحطيم كيانهم الإجتماعي بأن :

١ـ شجع الإستعمار قيام نظام طبقي ، أساسه وجود فئة من الإقطاعيين والإحتكاريين يستأثرون بالثروة ، على غرار النظام الاقطاعي في أوربا في العصور الوسطى ، وباقي الناس في ذل وفقر وجهل ـ بمعنى آخر أوجد ـ التفاوت الطبقي الكبير ـ الذي لم يعرفه المسلمون في تاريخهم. ووجد أدوات من الطبقتين ـ الغنية والفقيرة. الغنية المتسلقة والفقيرة المحتاجة فأصبحت علاقات المجتمع عدائية بدل الحب والتعاون والتكافل في المجتمع الإسلامي.

٢ـ جعل بعض البلاد مرتعا خصبا للأجانب ، بأن شجع الأوربيين على النزوح إلى البلاد بما فيهم اليهود ، والاستيطان فيها ، واعتبرهم طبقة أرستقراطية أجنبية

---

(٢٩) برنارد لويس ـ الغرب والشرق ص ٤٩.

(٣٠) نفسه ص ٥٠.

(٣١) التبشير والاستعمار ص ٢١٧.

لامانع إطلاقا من أن تستعبد غيرها وتسخرهم لخدمتها ، وبجانبها طفيليات تعيش على فتاتها من أفراد المجتمع الإسلامي تسخرهم لأغراضها ، كما حصل في الجزائر وأندونيسيا والهند الإسلامية ومورو وتركستان والشاشان وأقطار أفريقيا.

٣- عمل على نشر الأمراض والعادات الاجتماعية السيئة في البلدان الإسلامية فعلم الناس : النفاق ، وفقدان الثقة بالنفس ، وعدم تحمل المسئولية ، وأشاع فيهم بأساليبه : روح الخوف والجبن من الحاكم ، والتشكيك في أعمال الغير ، ونشر فيهم عادات مرذولة زاعما أنها من مميزات المدنية والتقدم مثل : تعاطي الخمر ولعب القمار والإباحية والسفور والخلاعة ، والاستخفاف بكل ماهو إسلامي على اعتبار أنه قديم وبالي ورجعي ، والتباهي بكل ماهو أوروبي على اعتبار أنه حديث وتقدمي.

وأما أهم ميدان اقتحمه المستعمر وكان له الأثر البعيد في التغير الاجتماعي الإسلامي فهو **فكرة تحرير المرأة** :

كرم الإسلام المرأة ونظر إليها على أنها عرض يجب أن يصان ، وكرمها أما وزوجة وأختا وابنة ورحما. وخصها بأشياء تلائم طبيعتها الأنثوية تكريما لها لا انتقاصا ، وزادت حقوقها أحيانا كثيرة عن حقوق الرجل. فالرجل مكلف بالنفقة عليها غنيا كان أو فقيرا ، والمرأة غير مكلفة بالنفقة على الرجل ولو كانت غنية وهو فقير .. ثم جاء عصر الجمود فتأخر فيه المجتمع الإسلامي كله لا المرأة وحدها. وفي ظل هذا التخلف نفذت سهام القوى المضادة للإسلام إلى المسلمين بحجة تحرير المرأة ، وقد بدأت هذه السهام تنفذ منذ حملة نابليون على مصر (**١٢١٣-١٢١٦هـ/١٧٩٨-١٨٠١م**)(٣٢) وبالإرساليات الأجنبية ، ولكن حركة الابتعاث إلى أوربا (كانت أهم من كل من ذلك) زمن محمد علي باشا والي مصر ، وكان من أشهر المبتعثين الأوائل من المسلمين الشيخ **محمد رفاعة الطهطاوي** الذي يعد كذلك من رواد الإصلاح ، هذا الشيخ كتب كتابا عن مدينة باريس - الذهب الإبريز في أخبار باريس - وصف فيه لأبناء أمته الحياة الإجتماعية في فرنسا آنذاك تعرض فيه لوصف النوادي والمراقص ظهر فيه :

---

(٣٢) وكان نابليون قد استصحب في حملته على مصر عددا من البغايا (المومسات) تحدث عنهن الجبرتي في تاريخه. وقد أخذن يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات ، يقرن الفتنة ، وينشرن الفاحشة ، ويغرين بعض النساء الساقطات بتقليدهن... (انظر عجائب الآثار للجبرتي ج٢ص ٢٣١، ص ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥١ ، ٢٧٢-٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٤٣٦-٤٣٧).

١ـ أن الأخلاق ليست مرتبطة بالدين ، وهي فكرة انقدحت في ذهن الشيخ لكنه لم يستطع أن يعبر عنها بجلاء فهاهو المجتمع الفرنسي يمارس ألوان الدياثة التي لايرضاها الإسلام طبعا ، ولكنها مع ذلك ليست خارجة عن قوانين الحياء ، ولايشم منها الشيخ رائحة العفن بل هي معدودة في باب الأدب ، وقد نمت هذه الفكرة بعد ذلك وترعرعت حتى قال **قاسم أمين** بصراحة : إن الحجاب وسيلة لستر الفواحش وإن التبرج دليل على الشرف والبراءة ـ ومن ثم فلا علاقة بين الدين والأخلاق.

٢ـ إن المجتمع الغربي الديوث يكرم المرأة ويحترمها ، وفي المقابل نرى المجتمع الإسلامي يحافظ على العرض لكنه يحتقر المرأة ـ حسب الواقع المنحرف آنذاك ـ وبذلك نصل إلى المفهوم الذي وجد في أوربا نفسه وهو أن حقوق المرأة مرتبطة بتحررها من الدين ، فما لم ينبذ الدين فلن تحصل على الحقوق.

وقريب من قصد رفاعة ماقصده **أحمد فارس الشدياق** إذ وصف بأسلوبه المقامي الخاص الحياة الغربية ووضع المرأة فيها في كتابه (الساق على الساق).وهكذا وجدت البذرة الأولى لما سمي (قضية المرأة)(٣٣).

وكان أهم ماظهر في هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين(٣٤) الذي اقترن اسمه من بعد بلقب (محرر المرأة) وهما (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة). طبع الأول سنة **١٣١٧هـ/١٨٩٩م**. والثاني سنة **١٣١٨هـ/١٩٠٠م**.

ففي كتابه تحرير المرأة تناول أربع مسائل وهي الحجاب واشتغال المرأة بالشئون العامة وتعدد الزوجات والطلاق ، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل مايطابق مذهب الغربيين زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام(٣٥). والكتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخّر النصوص لخدمتها لذلك جاء مملوءا بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أم في النصوص التاريخية والفقهية ، أو الأدلة العقلية. وقد أثار كتابه موجة من المعارضة أكثرها مقالات صحفية(٣٦). جعلته ينزوي في بيته خوفا ، ولكن سعد زغلول شجعه ، ووعده

(٣٣) العلمانية ـ سفر ـ ص ٦٢٦.

(٣٤) وقاسم أمين نشأ في أسرة تركية مصرية ، اتصف بالذكاء ، وحصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة ، وهو في العشرين من عمره. فخلقفه الفرنسيون ، وابتعثوه إلى فرنسا ، فعاد إلى مصر بفكر جديد وبعقل جديد ، ووجهة جديدة !!

(٣٥) الاتجاهات الوطنية ص ٢٩٤.

(٣٦) نفسه ج١ ص ٣٠٢.

بالحماية ، فكشف عن أهدافه الحقيقية في الكتاب الثاني (المرأة الجديدة) الذي بدأ فيه أثر الحضارة الغربية واضحا. فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة التي ترفض كل المسلّمات والعقائد السابقة سواء منها ماجاء من طريق الدين وماجاء من غير طريقه ولاتقبل إلا مايقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع ، وهو مايسمونه (الأسلوب العلمي)(٣٧). وقارن فيه بين الحضارة اليونانية والرومانية والإسلامية ، ورجح الحضارة اليونانية والرومانية على الحضارة الإسلامية(٣٨). ثم يدعو في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول :

« هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها - إذا أتى ذلك الحين - ونرجو أن لايكون بعيدا - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح مافي أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، ...»(٣٩).

وقد طبق ذلك في بيته فأحضر لابنتيه مربيتين - إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية(٤٠).

والواقع أن قاسم أمين لم يدع قط إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقصتهم ، ولم يدع قط إلى أن تتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق والصدور والظهور. ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لاتخفي عورات الجسم إلا لتبرز مواضع الفتنة والإغراء منها. ولكن قاسم أمين وإن لم يدع إلى شيء من ذلك ، هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات ، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لابد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات في سرعة غير منتظرة ، فقد خلعت المرأة النقاب ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة (إزار كانت المرأة تلتحف به إذابرزت للطريق) ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة ، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيول وفي الأكمام وفي الجيوب ولم يزل يجور عليها فيضيقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها، ثم أنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطيء البحر في المصايف بما لايكاد

---

(٣٧) الاتجاهات الوطنية ج١ص ٣٠٢. وانظر كتابه - أي قاسم أمين - ص ٧٥، ٨٣.

(٣٨) نفسه ج١ص ٣٠٩.

(٣٩) نفسه ج١ص ٣١٠ وانظر كتابه - المرأة الجديدة ص ١٩٢-١٩٣. وانظر ص: ١٨٠ من هذا الكتاب.

(٤٠) قاسم أمين ص ٧٧ / ماهر حسن فهمي.

يستر شيئا ، و لم تعد عصمة كثير من النساء في أيدي أزواجهن ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومُشيعي الفجور.

وقطعت المرأة مرحلة التعليم الإبتدائي والثانوي ، واقتحمت الجامعة مزاحمة فيما يلائمها وفيما لايلائمها من ثقافات وصناعات ، وشاركت في الوظائف العامة. ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ماسماه أنصارها (حقوق المرأة) أو (مساواتها بالرجل) وكأنما كان عبثا أن خلق الله ـ سبحانه ـ الذكر والأنثى وأقام كلا منهما فيما أراد. فامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات ، وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان ، فاختفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها بعد أن أصبحن يفضلن مشاركة الرجال(٤١) وكانت قضية المرأة من أكبر الموضوعات التي خاضتها الصحافة وكتابها ، ومن أبعدها أثرا في تحويل المجتمع إلى الوجهة التي أرادها دعاة التغريب(٤٢) في أكثر بلاد الإسلام.

وكان من رائدات مايسمى بالحركة النسائية : هدى شعراوي حرم علي شعراوي ، وصفية زغلول حرم سعد زغلول باشا ، وتسمية كل منهما باسم زوجها هو اتباع للتقليد الغربي الذي ينسب المرأة لزوجها بعد زواجها ، وهو مخالف للعرف الإسلامي الذي يجعل للمرأة شخصيتها المستقلة. والأولى هي ابنة مصطفى فهمي باشا أشهر أصدقاء الانجليز من رؤساء الوزارات المصريين في عهد الاحتلال ، والثانية هي بنت سلطان باشا وهو من كبار الضباط المصريين الذين تعاونوا مع الاحتلال الانجليزي(٤٣).

وقد خرجتا ومعهما الفتاة اليهودية (فورتينيه ليفي) مع **٣٠٠** متظاهرة أثناء وقوف الشعب المصري للمطالبة بحقوقه بشجاعة عام **١٣٣٨هـ/١٩١٩م** فمزقن الحجاب وأحرقنه في ميدان عام وبدين سافرات أمام كتائب الجيش الانجليزي فكان هذا أعظم إسهام منهن في الثورة!!(٤٤) بل وتجرأت هدى شعراوي على مالم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة ، وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف(٤٥). كما اتخذت

(٤١) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٤٩.

(٤٢) انظر : الغارة على العالم الإسلامي ص ١٤٧ ، وقرارات مؤتمر لكنو التبشيري عام ١٩١٣م.

(٤٣) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٥٠ / الحاشية.

(٤٤) انظر قصيدة حافظ إبراهيم في وصف المظاهرة متهكما ـ الاتجاهات الوطنية ج٢ص ٨٧./ وانظرالمجلة العدد ٢٨٦ص ٢٥.

(٤٥) الاتجاهات الوطنية ج٢ص ٢٥١. وانظر محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ص ٢٥٧ ـ ٢٦١.

من بيتها صالونا تقابل فيه الرجال سافرة وفي غير وجود محرم.

وتكتب صحيفة السياسة الأسبوعية مقالا عن فتاة تركيا سنة **١٣٤٥هـ/١٩٢٦م** ، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضا عاما في رحلة على نفقة الحكومة ، تنتقل بين موانيء أوربا الشهيرة ، تقل خمسا وعشرين فتاة تركية جميلة ، مقصوصات الشعور لايكاد يميزهن الرائي من فتيات لندن وباريس .. ونشر مراسل الصحيفة ماصرحت به إحداهن :

« إن المرأة التركية اليوم حرة ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات. نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية ونرقص وندخن ونسافر ونتنقل بغير أزواجنا »(٤٦).

وصحيفة المقتطف تكتب مقالا تثني على مصطفى كمال وتقرنه بواشنطن زاعمة أنه أكبر زعيم معاصر .. وتشيد بالتطور الاجتماعي الذي طرأ على تركيا بسفور النساء واشتراكهن في المجتمعات مع الرجال ومشاركتهن الشبان في الدراسات الجامعية(٤٧).

وفي المجال التعليمي حرص لطفي السيد والدكتور طه حسين وأتباعهما على أن يكون التعليم مختلطا في الجامعة فيه الذكور والإناث ، واشتد الصراع في الجامعة من أجل ذلك وقد رفع بعض طلبة الكليات إلتماسا إلى مديرها وعمدائها سنة **١٣٥٦هـ/١٩٣٧م** يطلبون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة ، كما يطلبون الفصل بين الطلبة والطالبات. وكتب الرافعي ـ شيطان وشيطانة ـ ردا على طه حسين وسهير القلماوي ، كما كتب مقالا حيا فيه طلبة الجامعة الذين رفضوا الاختلاط(٤٨). ولكن الانتصار كان لدعاة الاختلاط بالطبع لوقوف السلطات إلى جانبهم.

واستمرت المعركة مسعورة ، فسلامة موسى يغرق في الوهم والخيال حتى جعل وضع المرأة هو المسئول عن مشكلات مصر من أولها إلى آخرها(٤٩).

وإسماعيل مظهر جمع شبهاته القديمة وآراء غيره ونسقها في كتاب أسماه (المرأة

---

(٤٦) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٥٥-٢٥٦ عن السياسة الأسبوعية عدد ١٧يوليو ١٩٢٦م.

(٤٧) نفسه عن المقتطف عدد إبريل ـ نيسان ١٩٢٦م ص ٤١٠-٤١٣.

(٤٨) نفسه ج٢ص ٢٦١/وانظر وحي القلم ج٣ ص ١٨٤-١٨٨ تحت عنوان قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر ، وص ١٨٩-١٩٧ تحت عنوان شيطان وشيطانة.

(٤٩) العلمانية ـ سفر ـ ص ٦٣٧/ عن الأدب للشعب ص ٦٦-٦٧.

في عصر الديمقراطية) وفيه(٥٠) :

« لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام سلطت عليهم أو رغبة في بسط سلطانهم على النساء ... من بضعة نصوص أشير بها إلى حالات قامت في عصور غابرة سبيلا إلى استعباد النساء استعبادا أبديا ، لقد حضت المرأة في ذلك العصر على أن تقر في بيتها وأن لاتتبرج تبرج الجاهلية الأولى » ويقول :

« فلما جاء الإسلام ـ عطف إلى ناحية المرأة فاعتبرها نصف إنسان وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذي لايزال حتى الآن موضع انبهار كل المشترعين ... غير أن خمسة عشر قرنا من الزمان كافية في الواقع لأن تهيء العقلية الإنسانية إلى خطوات أخرى في التشريع للمرأة ».

وتلاه خالد محمد خالد في كتابه : (الديمقراطية أبدا) : وكان حظ المرأة من ديمقراطيته شيئين(٥١) :

١ـ حق المرأة في وقف تعدد الزوجات.

٢ـ تأميم الطلاق على حد تعبيره.

وعد حسين مؤنس الحجاب الإسلامي العائق الأكبر في سبيل انتماء مصر للغرب ذلك أنه ربطها بالمجتمعات الشرقية المتخلفة في حين أن المرأة المصرية كالمرأة الأوروبية الحديثة سواء بسواء وحضارتهما واحدة(٥٢).

بل بعد أن تحقق السفور والاختلاط وسار شوطا نرى كاتبا هو إبراهيم المصري يقول : « الاعتقاد الشرقي الشائع بأن الرجل والمرأة متى التقيا فلابد أن ينهض الشيطان بينهما وينفث في نفسيهما سموم الرذيلة والشر ، هذا هو سر تأخرنا. وهو من بقايا عصور الجهل والخوف والظلام »(٥٣). وفي عهد السادات أصدر قانون الأحوال الشخصية بتأثير من زوجه جيهان. في الوقت الذي بدأ المؤشر ينحرف في اتجاه الإسلام. فاعتبرت جيهان نفسها مكملة لدور هدى شعراوي وزميلاتها(٥٤).

---

(٥٠) ص ١١٨.

(٥١) انظر كتابه ص ١٦٤-١٦٥.

(٥٢) انظر مصر ورسالتها ص ٥١-٥٢.

(٥٣) الهلال عدد أول يناير ١٩٣٨م ، ٢٩ شوال ١٣٥٦هـ ص ٢٦٨-٢٧٢ (مقال : بعد السفور. وانظر طعنه في الحديث الشريف : « ماجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ، ولاعليه فهو نصراني ولكن اللوم كل اللوم على المسلمين / انظر الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٢٦١.

(٥٤) انظر مجلة المجتمع العدد ٨٨٨ ص ٢٨-٢٩.

وصدر سنة **١٣٤٣هـ/ ١٩٢٩م** في **تركيا** قانون مدني على غرار قانون نوشاتيل المدني السويسري ، فحرم تعدد الزوجات ، وقضى على الحجاب والحريم ونظرة الطلاق ، وفي برهة وجيزة جعل من المرأة التركية شقيقة المرأة السويسرية وصنوها(٥٥).

فأصبحت المرأة التركية ترتدي أثواب السهرة العارية الكتفين والظهر كما لاتحجم عن ارتداء المايوه... ومامن أحد يشكو من التفكك الخلقي.

ومن مصر وتركيا إمتد تأثير المعركة بالصحافة إلى البلاد العربية والإسلامية ، فيقول الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي داعيا إلى خلع الحجاب(٥٦) :

هزأوا بالبنات والأمهات وأهانوا الزوجات والأخوات
هكذا المسلمون في كل صقع حجبوا للجهالة المسلمات
إن هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان والفتيات

وتأخرت الدعوة في **الشام** عن مصر فأول كتاب يتحدث عنها صدر سنة **١٣٤٧هـ/١٩٢٨م**، بعد وفاة قاسم بعشرين سنة ، وهو الكتاب الذي ألفته ـ أوألف باسم ـ (نظيرة زين الدين) بعنوان (السفور والحجاب). وقد قرظه علي عبد الرازق صاحب (الإسلام وأصول الحكم)(٥٧).

وكتب الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته بعنوان :

(إمتهان الفضيلة يوم الاحتفال بالجلاء في سوريا)(٥٨) : شهدت يوم الجلاء بنات السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن تهتز نهودهن في صدورهن تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة ... وشهدت بنتا جميلة زينت بأبهى الحلل وألبست لباس عروس وركبت السيارة المكشوفة وسط الشباب. قالوا : إنها رمز الوحدة العربية.

وأخذت صور هذا كله ونشرت في الجرائد وعرضت في السينمات ، فازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق ، حتى رأينا صور ناس من كبارنا مع نسائهم عراة على البحر منشورة في المجلات. قالوا : إنه يوم النصر يجوز فيه مالا

---

(٥٥) العلمانية ص ١٤٢ عن الإسلام والغرب ص ١٨١.

(٥٦) العلمانية ص ٦٣٠ / عن ديوان الزهاوي ص ٣١٩.

(٥٧) العلمانية ص ٦٣٠.

(٥٨) من ذكريات الشيخ الطنطاوي / نشرت في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٦م ، والشرق الأوسط العدد ٢٣٤٠ ص ١٠ الخميس ٥ شعبان سنة ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥/٤/٢٥م.

يجوز في غيره... ».

وكانت **تونس** أسبق بلاد المغرب إلى دعوة السفور فقد كتب الطاهر الحداد كتابه عام **١٣٤٩هـ/١٩٣٠م** : (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) وفي الإمكان أخذ نموذج لتأييد فكرته من المحاولة الفنية التي اشترك فيها محمود بيرم شاعرا وعلى الدعاجي راسما. فقد قام الشاعر يؤرخ للمراحل التي قطعتها المرأة التونسية قبل أن تلقي الحجاب وذلك من ستة عشر بيتا جسمت كل رباعية منها مرحلة من مراحل تطور الحجاب أبرز معانيها ووضحها علي الدعاجي بأربعة رسوم ظهرت فيها المرأة في وضعيات متباينة(٥٩).

هذا وقد نشرت مجلة العربي في استطلاع لها عن تونس صورة للوحات الدعاية المنصوبة في الشوارع ، فلوحة تمثل أسرة ترتدي الزي المحتشم وعليها إشارة (X) وأخرى تمثل أسرة متفرنجة متبرجة.

والغريب أن القوانين التونسية تعاقب من يتزوج ثانية بالحلال وتبريء من يخادن بالحرام(٦٠).

وفي **المغرب الأقصى** تمكن العهد الاستقلالي من أن يحقق في بضع سنوات مالم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين في هذا الميدان.

وفي **الجزائر** أوحت الثورة للنساء بالكفاح فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الإسلام ، وكذلك في فلسطين ، وأريتريا.

وبنجاح فكرة (تحرير المرأة) عمت الفوضى الأخلاقية معظم أقطار العالم الإسلامي على تفاوت في ذلك ، وتولى الجيل الذي رباه المستعمرون تربية جيل جديد تقبل الإنحلال وتآلفه ، وحوربت أحكام الله على يد أبطال الإستقلال أكثر مما حوربت بأيدي المستعمرين - جيل (على حد تعبير الشيخ الغزالي(٦١)) يستحي من الانتساب للإسلام ، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره ، يحب أن يراه الناس خارجا من حانة ولايحب أن يروه خارجا من مسجد ، ومن السهل

(٥٩) العلمانية ص ٦٣١-٦٣٢ ، انظر مجلة الفكر - تونس. ديسمبر ١٩٧٥م عدد خاص عن المرأة في عام المرأة.

(٦٠) العلمانية ص ٦٤٣.

وقد تحدث قصي صالح الدرويش في كتابه (يحدث في تونس) بما يدمي القلب ألما وحسرة على وضع المرأة المسلمة في تونس.

(٦١) كفاح دين ص ١٤٧.

عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة لكن وجهه يسود لو قيل : تزوج من اثنتين ، أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله ﷺ فذلك لايخطر له ببال.

وهكذا ظل الناعقون يصيحون في كل مكان ويسلكون كل اتجاه ـ فكريا أم علميا ـ حتى آل الأمر إلى الواقع المؤلم الذي عبر عنه أوفى تعبير (جان بول رو) بقوله :

« إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات ويقلب رأسا على عقب المجتمع الإسلامي لايبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة »(٦٢).

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك : تيسر استخدام وسائل منع الحمل وانتاجها على نطاق واسع أكثر بكثير من حاجة البشرية ، وتخفيض أسعارها ، حتى تصبح في متناول أي فتاة تريد الحصول عليه ، وإخراجها من دائرة المراقبة وبيعها دون حاجة إلى تذكرة الطبيب ، وحينما تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير الشرعية فما الذي يمنعها من أن تسير فيها إلى آخر المدى ، وهكذا يتمكن الشياطين من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق(٦٣).

والسلاح الفتاك الذي استخدم لتقويض المجتمعات الإسلامية ونقل الأوبئة الاجتماعية الغربية هو **وسائل الاعلام** من صحافة وإذاعة وسينما وتلفزيون وفيديو ، إلى جانب ذلك يأتي التعليم المختلط ، والنوادي المختلطة ، والشواطيء (البلاجات) المختلطة ، وتأتي الأزياء الخليعة المستوردة من بيوت اليهود في الغرب وخاصة باريس. وتأتي موانع الحمل ووسائل الاجهاض ، إلى جانب ذلك يكون الاختلاط الفاضح في دوائر الحكومة والمؤسسات وفي وسائل المواصلات وفي الشقق والمساكن وفي كل مكان في معظم أقطار العالم الإسلامي.

فقد افتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة **١٨٩٦م** ، ثم انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي(٦٤) ، وافتتحت الخمارات في كل مكان حتى تغلغلت إلى

---

(٦٢) الإسلام في الغرب ص ١٧٨.

(٦٣) محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ص ٩٧.

(٦٤) من الجدير بالذكر أن اليهود هيمنوا على الأوساط الفنية في مصر منذ زمن بعيد ، فعائلة موصيري هي التي أسست شركة السينما عام ١٩١٥ باسم جوزي فيلم ومنذ عام ١٩٢٩م احتكرت هذه الشركة استيراد الأفلام الخام وبيعها وكذلك طبع الترجمة على الأفلام الأجنبية التي كانت تستوردها ، ثم توسعت الشركة بعد ذلك وأقامت استوديو للانتاج السينمائي. (الإسلام والحركات الهدامة ـ معالي عبد الحميد حمودة ص ٣٩).

الريف ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كثير من العواصم الإسلامية ، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات ، والجهر بها ، باسم الحرية الشخصية(٦٥).

وتحت مختلف دواعي المدنية والترفيه وأمثالها أدخل المستعمرون جيوشا أخبث من جيوش الاحتلال العسكري ، وهي أنواع من الممثلين والممثلات وأمثالهما من البغايا والراقصات ، وشجعوا إنشاء المسارح وفرق الغناء والتمثيل والمراقص والملاهي المتنوعة ، وكانت الأجنبيات أولا ثم الوطنيات من غير المسلمات هن العنصر الأساسي في هذا الغزو ، فشجع ذلك المرأة المسلمة على السفور والتعري والاختلاط الماجن ثم التقليد في كل شيء. ولم يكن هذا تغييرا في القشرة السطحية للمجتمع الإسلامي وإنما كان زلزالا رهيبا ومدمرا ، ينسف بنيان الأخلاق من قواعده ، وكانت نتائجه غاية في السوء من شيوع الزنا والربا والمسكرات والمخدرات والتي أدت إلى تخريب إقتصادي بانتقال الثروة الوطنية تباعا إلى أيدي الأعداء الأجانب من كل لون. وكان جزء كبير ينتقل إليهم عبر المراقص والخمارات وغانيات أوربا أو ساقطاتها(٦٦).

ثم جاءت البلاد الإسلامية التي ادعت الاشتراكية فأنشأت معسكرات الفتوة ، وزودت هذه المعسكرات بمجموعات ضخمة من الفتيات الجميلات ، قاموا بتجنيدهن خصيصا إلى جانب الفتيان العزاب في هذه المعسكرات لإشاعة الإنحلال والفساد بين الشباب.

وقد أفسح المجال عمدا للأقلام المسعورة ، والإيعاز لها وتشجيعها ، بنشر التشكيك في الإسلام وكتابة البحوث والتحقيقات المختلفة التي تشيع البلبلة بين الطلبة والطالبات ، وتشجعهم على الإنحلال والإنفلات من قيود الفضيلة والتحفظ والإحتشام ، وكذلك حطمت الأقلام الإسلامية وروقب أصحابها ، أو خدر أصحابها ، بإرهابهم وتسليط حرب حامية عليهم من حروب الأعصاب. ثم الإيعاز إلى الصحف السيارة المؤممة بأن لاتنشر لهم أي بحث إسلامي تستفيد منه الدعوة الإسلامية الصحيحة. ولاتجد فيها إلا من يروج الإلحاد ويدعو للتحلل(٦٧).

فلا عجب إذا سمعنا عن جرائم إجتماعية في العالم الإسلامي تضاهي تلك التي في أوربا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد. ولا عجب أن تنتشر

(٦٥) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ٢٤٤.
(٦٦) باشميل ـ أكذوبة الاشتراكية العربية ص ٢٠.
(٦٧) نفسه ص ٢٣.

الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة. وليس مانشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك. ولا عجب أيضا أن تتقوض البيوت وتنهار الأسر ويصبح جنوح الأحداث مشكلة إجتماعية تعاني منها بلاد تسمى بلادا إسلامية. ولا عجب أن نجد الروح الإنهزامية الفارغة المحبة للتقليد والتي من أكبر مكونيها اعلامنا المرئي والمسموع والمكتوب.

إن التربية غير السليمة لايمكن أن تنتج إلا جيلا غير سليم ، وهاهو الجيل المعاصر المنكود تتجاذبه الازدواجيات ، والشهوات والشبهات وتمزقه التناقضات والغوايات وتغتاله النزوات المبهورة والاغراءات القاتلة ، فلا يستطيع لضعف عقيدته إلا أن يسلم نفسه ذليلا لشياطين الجن والإنس ينهشون فكره وجسده ويلهبون ظهره بسياطهم حتى يسقط مشلولا ممزقا على مذبح الإباحية.

فانتشرت ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب ـ هربا من مشاكل الحياة ـ الذين تتراوح أعمارهم بين **١٨ـ٢٩** سنة ، وازداد تعاطي الهيروين بعد الأفيون والحشيش في مصر بشكل خاص(٦٨) بعد عملية التطبيع مع الكيان الصهيوني بين أثرياء الطبقة الجديدة بعد سياسة الإنفتاح ، وفي أوساط الفنانين والفنانات ثم في أوساط طلاب الجامعة وأولاد الأثرياء وأعضاء النوادي المشهورة ـ فكثرت جرائم القتل والسرقة والتهريب(٦٩) واتخذت بيوت الفنانين والفنانات أوكارا لتعاطيها وتوزيعها(٧٠).

---

(٦٨) انظر : الشرق الأوسط العدد ٢٣٤٠ ص ١٠ الخميس ١٩٨٥/٤/٢٥م ٥ شعبان سنة ١٤٠٥هـ.

بل إن الأدوية التي تصدرها الدوائر الأجنبية للبلاد الإسلامية تحوي مواد كيماوية تؤدي بمن يستعملها إلى الإدمان. فقد أذاع التلفزيون البريطاني ندوة عن كتاب أصدرته الدكتورة ديانا أستاذة الفارماكولوجي بكلية الطب في انجلترا بعنوان **Bitter Pills** أي الأقراص المرة. بينت فيه الدكتورة أن هذه الأدوية مصنوعة أساسا لتصديرها لشعوب العالم الثالث لتخديرهم وتأخيرهم..

ويشبه موقف شركات الأدوية شركات الانتاج الاستهلاكية كشركات الملابس والأطعمة والسجاير.. ولننظر إلى الأدوية التي يزعمون أنها تعيد الشباب أوتقوي الرجال. ٢٪ يستهلك في أوربا و٩٨٪ تستهلك في بلاد المسلمين!!. (الشرق الأوسط العدد ١٦٠١ الأحد ٤ رجب ١٤٠٣هـ/١٩٨٣/٤/١٧م ص ١٠).

(٦٩) الشرق الأوسط ص ٢٠ الاثنين ٧جمادى الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥/١/٢٨م.

(٧٠) فعلى سبيل المثال قبض على ماجدة الخطيب وشقيقها لتعاطي المخدرات وتوزيعها. (الشرق الأوسط ص ٢٠ الثلاثاء ٤ محرم ١٤٠٦هـ/١٩٨٥/١٠/٨م ، والشرق الأوسط ص ٢٠ محاكمة ماجدة الخطيب الأربعاء ١ ربيع الأول ١٤٠٦هـ/١٩٨٥/١١/١٣م).

وفي الخليج نشرت المسلمون تقريرا خطيرا عن انتشار المخدرات واستعمال الغراء بديلا عن المخدرات «في محاولات لهدم الكيان الجسدي للأمة بعد محاولات هدم الكيان الفكري لها(٧١). وكذلك العقاقير المنشطة والمهلوسة التي تأتي من أوربا(٧٢).

وفي الوقت الذي تحرم فيه إسرائيل بشدة المخدرات داخل المستوطنات تقوم بزراعتها وبيعها للعرب ، فهي لها دور في مزارع المخدرات في جنوب وشمال لبنان ودور في بيعه وترويجه وتهريبه ، قال النائب العام المصري : « إن هناك مخططا إرهابيا لإفساد شباب مصر ، ولذا يجب على الدولة أن تحسم هذا الأمر لأن السياح الإسرائيليين يستغلون تطبيع العلاقات ويقومون بترويج هذه المواد السامة داخل البلاد »(٧٣).

ورغم الانحراف الذي حصل للمجتمع الإسلامي في جميع أقطاره فقد بقي الإسلام ، وبقي علماؤه ينيرون الطريق لهذا المجتمع المنحرف ، وبالفعل بدأ العد العسكي في طريق العودة ، فأصبحنا نلمس هذه العودة في الشباب والشابات بشكل خاص وبدأنا نرى الحجاب يعود إلى بعض المسلمات. ودعوات العودة

---

(٧١) الشرق الأوسط ص ٧ الجمعة ١٩٨٥/٤/٢٦م.

(٧٢) الشرق الأوسط ص ٢٠ الاثنين ١٩٨٥/١/٢٨م.

(٧٣) الشرق الأوسط ص ٢، ١٩٨٥/١٠/٢٦م (شجون عربية).

لاتفتر ولا تهدأ رغم دواعي الانحراف لأن الإسلام هو فطرة الإنسان السليمة(٧٤). وبقيت أمة الإسلام تحمل بذور الخير ، وهذه البذور بحاجة إلى الإستنبات ، وهذا هو دور الدعاة إلى الله.

---

(٧٤) بين الله سبحانه وتعالى معالم السلوك الآدمي أو الوضع الذي يجب على الإنسان فعله بحكم هذه الآدمية ، وعدم الاستجابة تخل بآدميته ويهبط به دركات بعضها دون بعض على قدر تخليه عن تلك الأوامر والنواهي حتى يلتحق بسائر الخلائق الأخرى التي تدب على وجه الأرض. قال تعالى ﴿ يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾.[الأعراف : ٢٦].

فاللباس الذي يواري السوأة وفوقه الريش الذي يتجمل به الإنسان في لباس البدن أو في مقام الزينة والأثاث ، كل ذلك من أوضاع بني آدم ، كما أن من شأن أحدهم أن يتجمل بلباس التقوى يستر به عورة النفس والروح بعد ستره لسوأة الجسد والبدن ، ذلك من آيات الله في الخلق والتدبير.أما النزع والتجريد وكشف السوآت فأوضاع شيطانية لايصل إليها بنو آدم أو لاينحدرون إليها إلا وقد أصاب الشيطان سويعة في نفوسهم وعقولهم. قال تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ﴾[سورة الأعراف الآية ٢٧].

هذه الولاية توحي بعصر سيادة الشيطان وطاعته ونفاذ أمره. ونحن لانشك أن الصرعات العقائدية التي تنطلق في ظل الجنس والمخدرات والإباحية أو التي تطلق لها العنان من عصر الفرويدية التحررية حتى الآن ، أنها تعبد الشيطان بل أن بعض هذه الصرعات التي تعبده حقيقة تعيش في الوقت نفسه أحلام المخدرات وأوهام الجنس وفي مستنقعات العري والتكشف.

وجاء في الدعاء المأثور : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واختم بالصالحات آجالنا».

(من الشرق الأوسط ص ١٤ - حقيقة ورأي - د. عدنان زرزور ١٩٨٥/١١/٢م).

الفصل الثالث
واقع العالم الإسلامي من الناحية السياسية

تخلى العرب والمسلمون عامة عن الدور المنوط بهم في قيادة البشرية وتوجيهها وهدايتها ، فتداعت عليهم الأمم والشعوب لكي يظفر كل بما يريد وهم في جمود وضعف ، ليس من بعده ضعف ، ولقد بدأ الإنحراف في تصرفات بعض الحكام المسلمين قديما ، غير أن نقض عروة الحكم لم يظهر إلا في العصر الحديث حين بلغ المسلمون قرارة الضعف وغاية التدهور ، فقد كان الإسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفوس من أن يستبدل به أي منهج آخر ، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاوله أو تطمع في أبنائه.

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لينقضنّ الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن نقضا الصلاة »(١).

وقد أدرك الغربيون ـ التي تولت حضارتهم قيادة الفكر البشري وتوجيه الحضارة الإنسانية ـ أهمية الحكم في الإسلام فعملوا على إبعاد أحكامه وإلغاء الخلافة ـ العقد الذي يجمع المسلمين ليتبعثروا بعد ذلك ـ. كما أن خبراءهم لم يجمعوا في الشئون الإسلامية على شيء مثل إجماعهم على توقع الخطر من جانب الشعوب الإسلامية التي يرون مظاهر اتحادها وطلائع تكتلها حقيقة واقعة يصعب تجنبها ، يجد القاريء هذا الاحساس واضحا في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) للوثروب ستودارد(٢). وكتاب المستشرق الهولندي هورجرونيه ، كما يجده في مقال الوزير الفرنسي المشهور (هانوتو) الذي رد عليه محمد عبده في مطلع القرن العشرين(٣). ويجده بشكل أكثر صراحة في كتاب (إلى أين يتجه الإسلام) الذي أشرف على نشره وجمع مواده المستشرق الإنجليزي(هـ.أ. جب) سنة **١٩٣٢م** والذي اشترك في تحريره أساتذة متخصصون في الدراسات الإسلامية والشرقية من جامعات فرنسا وألمانيا وهولندا وإنجلترا، وفيه يبرز عطف حكومات الإحتلال الغربية على كل مشاريع الحكومات الوطنية في الشرق الإسلامي والعربي منه خاصة

---

(١) المسند ج٥ ص ٢٥١ ، والجامع الصغير ـ صحيح ـ.

(٢) انظر ص ٢١- ٢٣ من حاضر العالم الإسلامي. وانظر ص ١٢-١٤ الجزء الأول.

(٣) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ٣٤٧ ومابعدها.

التي من شأنها تقوية الشعوبية فيها وتعميق الخطوط التي تفرق بين هذه الأوطان الجديدة ، مثل الإهتمام بتدريس التاريخ القديم على الإسلام لتلاميذ المدارس وأخذهم بتقديسه ، والاستعانة على ذلك بالأناشيد ، ومثل خلق أعياد محلية غير الأعياد الدينية التي تلتقي قلوب المسلمين ومشاعرهم على الاحتفال به ، ومثل العناية بتمييز كل من هذه البلاد بزي خاص ولاسيما غطاء الرأس ـ مما يترتب عليه تمييز كل منها بطابع خاص ، بعد أن كانت تشترك في كثير من مظاهره(٤). كما قال مستر (بلنت) في كتابه (مستقبل الإسلام) بعد أن أبان أغراض حكومته الانجليزية وأمانيها في مستقبل الإسلام في فاتحة كتابه(٥) :

لاتقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن في النظام وأجملا

(أي أن هدم السلطنة العثمانية لايضر بالمسلمين بل أن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقدا أحسن وأجمل ...)

بقي العالم الإسلامي يمثل كتلة سياسية واحدة رغم ماأصابه من انحراف وجمود ، ورغم ماأصابه من فرقة وتشتت ، يتمسك بمفهوم الولاء والبراء الإسلامي ،ويجمعه رمز الخلافة ، والبيت الحرام. ويطلق على غير المسلمين الكفار ، ولايقبل الخضوع لهم ، بل ويتحداهم رغم ضعفه وهوانه. وكانت قد إبتدأت فيه عوامل اليقظة الفعلية وكان من الممكن أن يستعيد ذاتيته ودوره في التوجيه العالمي وفي قيادة العالم عندما انبثقت من قلب الجزيرة العربية ـ منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريبا (القرن الثاني عشر الهجري) ـ دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بعيدة عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الإسلامي كله من خلال النفوذ الأجنبي الزاحف ، وهذا ماأعطاها قوتها ومكّن لها وأتاح لها فرصة البقاء والتأثير ، كما زاد من قوتها وأثرها أنها انبعثت في مكان الدعوة الإسلامية ، وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي قاصدين بيت الله الحرام ، ودعوتها إلى التوحيد أقوى علامات المقاومة للاستعمار والنفوذ الغربي والانحرافات في عالم الإسلام بحسبان أن الإسلام دعوة خاصة لاتقر بالعبودية إلا لله وحده ، متخطية جبرية التصوف والتواكل ـ وقد تحولت هذه الحركة إلى دولة عندما التقى الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالإمام محمد بن سعود في الدرعية وتعاهدا على نشر عقيدة التوحيد الخالصة ، وتطبيق شرع الله ، ومن

(٤) انظر الاتجاهات الوطنية ص ١٤٠-١٤٢.

(٥) نفسه ج١ ص ٢٥ / المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص ١٩-٢٢.

ثم بدأ الجهاد في سبيل الله ، حتى عم التوحيد ربوع الجزيرة العربية ، وقد حرص الاستعمار على وأدها والقضاء عليها وحمل عليها الحملات وأوغر عليها صدر الدولة العثمانية التي رأت فيها خطرا عليها وعلى نفوذها ، فتمكن محمد على باشا والي مصر من اسقاطها. ولكن الحركة لم تمت بل وسعت مداها وتأثر بها دعاة السلفية في الهند والعراق والشام ومصر والمغرب جميعا ، فكان من تلاميذها الألوسي الكبير في بغداد ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين في تونس ، وصديق حسن خان في يهوبال بالهند ، وأحمد بن عرفان الشهيد بالهند(٦). وهكذا سجلت الحركة يقظة إسلامية قبل قدوم نابليون بأكثر من ستين عاما. وانبعثت منها السنوسية على يد محمد بن علي السنوسي ، الذي تلقاها في مكة وكونت جيلا قادرا على أن ينشر الإسلام في أنحاء أفريقيا ويشكل في الوقت نفسه كتائب للجهاد في سبيل الله في الجزائر وليبيا. وكان قد بدأ عمله الجاد عام **١٢٥٨هـ/١٨٤٢م** بالبيضاء في الجبل الأخضر حتى توفي سنة **١٢٧٣هـ/١٨٥٦م**. وبالدعوة السنوسية واصل الإسلام مده في أفريقيا فأصبحت بحيرة تشاد مركزا للإسلام في أواسط أفريقيا ثم امتد عمل السنوسيين حتى بلغ النيجر الأدنى. وتأسست ممالك إسلامية مثل سلطنات رابح وأحمد وساموري. حتى أن مسيو (رودفريرجن) قال : « إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأن السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال ... وهي العقبة في سبيل توسعنا الإقتصادي والسياسي داخل أفريقيا وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء »(٧).

وقد تحولت الحركة كليا إلى مقاومة عسكرية مسلحة عندما دخلت ايطاليا طرابلس الغرب عام **١٣٢٩هـ/١٩١١م**.

كذلك برزت في السودان حركة ثالثة وهي حركة محمد أحمد ـ الحركة المهدية ـ وقامت حركته على الجهاد وتحرير مفهوم الإسلام من البدع والخرافات معا ، واستطاعت الحركة أن تواجه الحملات التي شنتها بريطانيا في ظل احتلال مصر (**١٣٠٠-١٣١٦هـ/١٨٨٢-١٨٩٨م**) وأن تسحق كل عمليات الغزو التي وجهت إليها(٨). إلى أن تمكن (كتشنر) القائد الإنجليزي من القضاء على

---

(٦) الجندي ـ العالم الإسلامي والاستعمار ص ٢٥٥/ وانظر حاضر العالم الإسلامي. لوثروب.

(٧) نفسه ص ٢٦٣.

(٨) الجندي ـ نفسه ص ٢٦٩.

ذلك الكيان عـام ١٣١٦هـ بعد أن تمكنت بريطـانيا من عزل الـدعوة عن جيرانها المسلمين وتشويهها.

وقد حاول المستعمر الغربي تشويه الحركات الإسلامية الثلاث وعمل على القضاء عليها جميعا وعلى الحركات التي مثلها تقوم على أساس الإسلام في الحكم وتعلن الجهاد في وجه الغاصب. وعمد إلى إشاعة فكرة **فصل الدين عن الحياة في العالم الإسلامي**(٩).

وقد ابتدأ الانحراف غير المقصود عن الحكم بالإسلام في جناحي العالم الإسلامي القويين ـ **تركيا ومصر** ، من منطلق التخلص من جمود الفقه الإسلامي أمام التغيرات الحيوية الجديدة ومن توهم المسلمين بأن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإداري وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف. وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة حركة الإصلاح في جناحي العالم الإسلامي. ولمرونة المفهوم واتساعه صاحب حركة الإصلاح من سوء الفهم وغبش التصور مما أدى آخر الأمر إلى سحق الشريعة الإسلامية باسم الإصلاح. فنشأت في تركيا حركة ثورية تطالب بالإصلاح الداخلي الذي تمثل في وضع حد لسلطة السلطـان عبد الحميـد المطلقة، وقـد لمع اسم مدحت بـاشا(١٠) في حركة الإصلاح المرنة هذه فصمم على إيجاد دستور وفق الاحكام الغربية الصرفة بغية إرضاء الدول الأوروبية ليلقى الدعم والتأييد وذلك في زمن السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس والسلطان عبد الحميد حيث تولى الصدارة في عهده تحت ضغط الدول الأوروبية ليفسح لهم المجال في نشر الأفكار الغربية فوضع دستورا دعاه : قانون أساسي عام **١٢٩٤هـ** استوحاه من الدستور البلجيكي ، فأصبح الدستور البلجيكي المعدل دستورا للدولة الإسلامية العثمانية بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة.فلم ينفذه السلطان عبد الحميد ونفى مدحت باشا وقد ثبتت اتصالاته بالانجليز في وقت كان فيه. (دزرائيلي). اليهودي رئيسا لوزراء بريطانيا . وأخذ عبد الحميد يدعم مركز الخلافة وتقوية الجامعة الإسلامية(١١). فقامت خلية جماعة الاتحاد والترقي في سلانيك (كما سبق وأن بينا). التي عملت على اسقاط

---

(٩) انظر ـ شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي ـ فصل عن قضية فصل الدين عن السياسة ج٣ ص ٣٥١-٣٦٤.

(١٠) انظر علي حسون (ولد مدحت عام ١٢٣٧هـ وتوفي عام ١٣٠١هـ في الطائف). ص ١٦٣.

(١١) نفسه ص ١٩٩.

عبد الحميد واقصاء الشريعة ـ الإسلامية من حكم تركيا ـ ـ، ـ ثم مصطفى كمال الذي قضى نهائيا على الشريعة الإسلامية في تركيا. وسار بتركيا مسيرة من يجعل الإسلام أجنبيا عن الحكومة التركية ـ وكان قادة حركة الإصلاح التركية من مختلف الميول والاتجاهات فضياءالدين وقع في يده كتاب أدمون ديمولان عن سر تقدم الانجليز السكسونيين ومن ثم اعتنق فكرة اللامركزية.

وأحمد رضا كان قد تعرف على أوغست كونت فاعتنق الوضعية إلى حد أنه أصر على تأريخ منشوراته بالتاريخ الخاص بالوضعيين وحذف التاريخ الهجري. وأمه نمساوية وأبوه كان يعرف باسم انجليزي علي بك نظرا لميوله للإنجليز وحبه لهم.

ونامق كمال كان وطنيا متأثرا بالنزعة القومية التي عاصرها أثناء إقامته في العواصم الأوروبية المختلفة(١٢).

وأما مصطفى كمال فقد تمت صناعة بطولته بكل دقة وألقى اليونان في البحر فكان على يديه انتهاء الخلافة وإعلان العلمانية ، بل وصف الأمير شكيب أرسلان حكومته أنها : دولة مضادة للدين والحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء(١٣).

والواقع أن مصطفى كمال قد صنع نموذجا صارخا للحكام في العالم الإسلامي بالتخلي عن أحكام الإسلام وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ(١٤). أثره في سياسات من جاء بعده منهم. كما أنه أعطى الاستعمار الغربي والشيوعي مبررا كافيا للقضاء على شريعة الإسلام.

أما في مصر :

فقد حاول نابليون بونابرت. عندما قام بحملته على مصر عام **١٧٩٨م** (كماسبق) ـ تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال قانونه بدلا منها ، فقاومه علماء الأزهر ، ومعهم الأمة ، ففشل ، وفشل خلفه (كليبر) الذي سقط قتيلا بيد (سليمان الحلبي) المسلم رحمه الله، وكذلك فشل **جاك مينو الذي تظاهر بالإسلام** ، واسمى نفسه عبد الله ، وتزوج مسلمة من رشيد واسمى ابنه سليمان.

ثم بدأ الانحراف عن الشريعة منذ زمن محمد علي باشا. وفي عهد إسماعيل الذي كان هدفه الأكبر هو أن يجعل مصر قطعة من أوربا(١٥). وأما في عهد الاحتلال

---

(١٢) كشك ـ القومية والغزو الفكري ص ٢٦٢-٢٦٣. وانظر أسرار الانقلاب العثماني ص ٥٨.

(١٣) حاضر العالم الإسلامي للوثروب ج٣ ص ٣٥٨.

(١٤) انظر أرمسترونغ ـ الرجل الصنم.

(١٥) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ١٩٠.

البريطاني فقد لقي دعاة الإصلاح تشجيعا من كرومر لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين :

فهو يشغل الرأي العام بما يطرح على بساط البحث من مسائل ومايثار من مشاكل فينصرف عن الانسياق في تيار الكراهية للإحتلال الإنجليزي.

ثم إن الإصلاح يدعم في الوقت نفسه حجة الاستعمار في أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها. ولذلك أطلق كرومر حرية الصحافة في الكلام عن عيوب المجتمع ووسائل علاجه. ويساعد كرومر في دعوته عدد من النصارى بعضهم من الشام وبعضهم من مصر(١٦). فأخذوا بمساعدة بعض العلماء والزعماء يعملون على حركة إلغاء الإسلام أو عزله عن شئون الحياة كلها.

فأحمد لطفي السيد (أستاذ الجيل) كتب في جريدته : (الجريدة) : « إن الانجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر ، ولاينبغي أن نحاربهم ، ونقاومهم ، إنما واجبنا أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم ، بعد ذلك ، لتصفية مابيننا وبينهم من خلافات ».

فكان رأيه هذا المرة الأولى في التاريخ الإسلامي ، توجه فيها الأمة إلى قبول أولياء الأمر لهم من غير المسلمين(١٧).

وأنشيء الحزب الوطني الحر الذي نطقت باسمه جريدة المقطم الصريحة في ولائها للانجليز لاتستخفي ولاتداري(١٨). وكذلك حزب الأمة الذي دعاإلى التحرر الفكري والتعاون مع الأوربيين في كل مجالات الحياة ثقافيا وإقتصاديا وسياسيا وكان اللورد كرومر يسميهم حزب الشيخ محمد عبده ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ويوصي ممثلي الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع(١٩).

وكان الانجليز أيضا يحتضنون في مصر كل مناهض للسلطان العثماني ، وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان وكل داع إلى الإصلاح الداخلي ، لأنهم يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في الجلاء(٢٠). فكانت سياستهم تدور حول خطتهم السياسية المشهورة : فرق تسد

---

(١٦) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ٢٥٥-٢٥٦.

(١٧) واقعنا المعاصر ص ٣٠٧.

(١٨) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ٩٣.

(١٩) نفسه ج١ ص ٩٥.

(٢٠) نفسه ج١ ص ١٠٨.

Devide in order to conquer.(٢١)

وكانت بريطانيا عازمة على إلغاء الشريعة الإسلامية فور تمكنها من البلاد غير أن كرومر رأى أن أفضل وسيلة لذلك هو تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها بأن يتولاها علماء : (ذوي طابع تحرري) تتم تربيتهم بإشرافه في معهد خاص لقضاة الشرع(٢٢). وأنشأ مجلس شورى القوانين(٢٣). وأصبحت تشتد الدعوة في فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية أو فصل الدين عن الحياة وشئونها أسوة بأوربا(٢٤). واستغل كرومر صداقة الشيخ محمد عبده استغلالا بشعا مما دعا باحثا أوربيا مثل (جب) لأن يقول : « ... وهذا الرأي يعتبر لبنة في بناء الحركة المتمدنة أو خشبة الخلاص في حركة التحرر العلمانية »(٢٥). والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة جعلت أولئك يعتبرونه من ركائز العلمانية في العالم الإسلامي ، فقد تجرأ على اضعاف مفهوم الولاء والبراء ، ودار الحرب ودار الإسلام ، فقد أعلن جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، حين استفتاه بعض مسلمي الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين مستعينين ببعض الأجانب غير المسلمين(٢٦). فأوجد الشيخ بقصد أو بدون قصد القاعدة التي ارتكز عليها دعاة الإصلاح للتعلق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياه. وتطويعه لقبول الأمر الواقع. إذ ظلوا ينقضون الإسلام عروة عروة حتى أن المعركة بعد ذلك أصبحت تدور ضد قانون الأحوال الشخصية وهو البقية الضئيلة من آثار الشريعة الإسلامية.

هذا وقد عاصر الشيخ محمد عبده رجل آخر من دعاة الإصلاح في الشام هو عبد الرحمن الكواكبي (ت سنة **١٣٢٠هـ/١٩٠٢م**) وهو أول من نادى

---

(٢١) نفسه ج١ ص ١١٣.

(٢٢) على غرار الكلية التي أنشأتها الفسا في سيراجيفو لتخريج القضاة الشرعيين كما ذكر الشيخ محمد عبده نفسه ج١ ص ٣٤٧.

(٢٣) انظر نفسه ج١ ص ٢٦٥.

(٢٤) نفسه ج١ ص ٢٧٤.

(٢٥) الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٧٢.

(٢٦) الاتجاهات الوطنية ـ ص ٣٤٣ ويضيف الدكتور محمد محمد حسين بعد أن أصدر الفتوى مثل هذه الآراء قد تبدو في ظاهرها ولابأس بها ولاغبار عليها بينما هي في حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر... » وقد أعيد نشر الفتوى في مجلة المنار يوم ١٧ ديسمبر عام ١٩١٣م. مع تعليق للشيخ رشيد رضا. (واقعنا المعاصر ص ٣٣٢-٣٣٩).

بفكرة فصل الدين عن الحياة بمفهومها الأوربي الصريح فهو يقول في كتابه طبائع الاستبداد طبع سنة **١٣١٩هـ/١٩٠١م** :

« ياقوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد ، وماجناه الآباء والأجداد ، فقد كفى مافعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلّكم من أن تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فبهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الإداري. دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء : ألا وهي فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء أعزاء »(٢٧).

وكان قد أصدر كتابه أم القرى سنة **١٣١٧هـ/١٨٩٩م** ، وورد فيه آراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول المستعمرة فقد قال : « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والإستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الإنقياد ولو لمثل عمر بن الخطاب »(٢٨).

واقتفى الأثر عدد من الكتاب والصحفيين وغيرهم يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسة وإبعاده عن واقع الحياة باعتباره الحل الوحيد لمشاكل الشرق ، وكان لجهود المستشرقين ودسائس المبشرين أعظم الأثر في تحقيق ذلك.

فتمكن المستعمرون عمليا من اقصاء الشريعة بل إسدال الستار على هذا الموضوع ، وزرعوا الأحزاب القومية والوطنية والاشتراكية المتباينة التي تتفق جميعها على شيء واحد هو عدم رفع شعار الإسلام أو الدعوة إلى تحكيمه.

وفي الوقت الذي أصبحت فيه **مصر مؤهلة لقيادة العالم الإسلامي** بعد سلخ تركيا عن الإسلام ، وكان الإستعمار يلم شعثه لمغادرتها ، ظهر كتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) بوحي من المبشرين دعا فيه إلى فصل الدين عن الدولة بصراحة بأسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات وطريقة الباطنية في التأويل البعيد(٢٩) ، كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالنصرانية علاقة روحية بين العبد والرب لاصلة لها بواقع الحياة. وكان قد سبقه سعد زغلول إذ أعلن بعد عودته من منفاه : « إن الدين لله ، والوطن للجميع»

---

(٢٧) طبائع الاستبداد ص ١١٢-١١٣.

(٢٨) انظر كتاب أزمة العصر للدكتور محمد محمد حسين ص ١٨-٢٠ حول هذا الموضوع.

(٢٩) العلمانية - سفر - ص ٥٨٢. وانظر واقعنا المعاصر ص ٣٢١.

فجاء الشيخ يؤيد هذه الفكرة.

وكان لكتابه آثار بعيدة فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعا معتمدا للدراسات الإسلامية في الغرب. وظهرت كتاباتهم متأثرة به ، وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه متحررا متنورا ، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية. في حين ووجه بمعارضة شديدة من المسلمين المخلصين(٣٠).

وقد وجدت الأحزاب السياسية في كتابه ضالتها المنشودة فلم تعد تتحرج في إعلان انتمائها للإتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها وبراءتها من الدين والمتدينين. وقد حاصرت الدوائر الاستعمارية الكتب التي ردت عليه وأهملتها وسائل الاعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة.

ومن بين الكتاب الذين ساروا على هذا الطريق خالد محمد خالد في كتابه: (من هنا نبدأ) هدف فيه إلى ماقصده الشيخ علي من قبل ولكن بأسلوب أذكى وأحدث(٣١).

ثم ظهرت أفكار كثيرة تبرر انتهاج الطرائق الغربية في الحكم وأسهمت وسائل الاعلام ـ لاسيما الصحافة ـ في نشر وتعميم تلك الأفكار حتى استحكمت غربة الشريعة وخفت صوت المكافحين عنها ، بل أصبح ـ في نظر الغالبية العظمى ـ رمزا للرجعية والتأخر وسط ضجيج الدعوة إلى الإصلاح والتجديد وصخب الشعارات التي رفعتها الأحزاب القومية والوطنية والإقليمية والاشتراكية المتصارعة ، فانسحب الإسلام من الحياة السياسية ليتخبط العالم الإسلامي وهيئاته السياسية في تجارب حكم جديدة ، وترتب على ذلك انسحابه من ميادين الحياة الإقتصادية تماما وسيادة المباديء الرأسمالية والاشتراكية المتصارعة ، كما انسحب تدريجيا من الحياة الاجتماعية (كما سبق) ، وانزوى في ركن واحد من العالم الإسلامي هو منبعه الأصلي في جزء من شبه الجزيرة العربية ، وغدت الأمة ضائعة تبحث عن ذاتها شاردة لاتدري إلى أين تسير كما أصبحت حقلا للتجارب الفكرية الوضعية. وضاعت أصوات دعاة الإسلام وسط هذا الضجيج وحوربوا وطوردوا

---

(٣٠) انظر الاتجاهات الوطنية ج٢ ص ٨٥ـ٩٥ / وقد حوكم علي عبد الرازق أمام هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها في ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤هـ/١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م بإخراج الشيخ أحد علماء الأزهر من زمرة العلماء.

(٣١) انظر رد الشيخ الغزالي عليه في كتابه : (من هنا نعلم).

وضيّق عليهم بمختلف الأساليب ، ولكن العد العكسي بدأ فأخذ كثير من أقطار العالم الإسلامي يتلمس طريقه نحو الإسلام بعد أن قطع أشواطا في الضلال. ورحلة العودة هذه مملوءة بالصعاب تحتاج لعزائم الرجال والدعاة لشدة التغيرات التي أصابت المسلمين في مختلف ميادين حياتهم وغربتهم عن الإسلام وعن شريعة الإسلام. مما جعل (جب) يقول :

« ... وكان طبيعيا أن يبقى الإسلام ... وقد يكون الدين الرسمي للدولة ولكنه سليب الحقوق التشريعية ، ونزل إلى مكانة الديانة المسيحية في الدول الأوروبية ، وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم »(٣٢).

ونرى لزاما علينا أن نلخص **آثار الاستعمار السياسية** في العالم الإسلامي لتتضح صورة الواقع السياسي لبلاد الإسلام :

فقد خطا المسلمون خطوات واسعة في سبيل التحرر من الإستعمار وأفسدوا حلمه في البقاء الطويل ، فاندلعت ثورات في الهند وأندونيسيا ومصر والجزائر والمغرب وليبيا والسودان والتركستان والقوقاز وأقطار أفريقيا الإسلامية فعمد الاستعمار إلى أساليبه المختلفة في إبقاء آثاره والحيلولة دون لقاء المسلمين ووحدتهم ، فيثبت أوضاع المسلمين بعد رحيل الاستعمار كما هي بل وأشد انحرافا عن منهج الإسلام وشريعته. ومن هذه الآثار التي تركها :

١ـ اقتسم المستعمرون العالم الإسلامي. فمزقوا وصلاته بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا وهولندة وأسبانيا والبرتغال ، وقد ترك كل منهم بصماته في الأقاليم التي تركها.

٢ـ انتزع المستعمرون أقساما من العالم الإسلامي وسلموها لغير المسلمين مثل فلسطين ، وأريتريا ، وصومال أنفدي ، والصومال الغربي ، وقبرص ، ولبنان ، وكثير من الأقطار الإسلامية الواسعة داخل الاتحاد السوفييتي ، وأوربا الشرقية.

٣ـ جزأ الاستعمار العالم الإسلامي ، وأقام الحدود المصطنعة وأبقى لكل قطر مشكلة مع جيرانه بعد رحيله ليحول بين المسلمين والتعاون فيما بينهم ولن تعوزنا الأمثلة لذلك : الصومال مع جيرانه ، العراق وإيران ، سوريا وتركيا ، مصر وليبيا ، السودان وجيرانها التسع ، المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ، تنزانيا ، نيجيريا ، أندونيسيا وماليزيا ، الهند وباكستان ، ثم بنغلاديش والهند ، كشمير ،

---

(٣٢) وجهة الإسلام ص ٥١ / وانظر بالتفصيل ـ أكذوبة الاشتراكية العربية ص ١٩-٢٣ في العمل لإقصاء الشريعة الإسلامية.

اليمن الشمالي والجنوبي وعمان ، ومشكلة كل قطر مع الآخر مستعصية ، لايحلها إلا الإسلام الذي أقصي عن الساحة.

٤ـ عمل الاستعمار على نشر لغته وتاريخه وعاداته في بلاد الإسلام وحارب اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، وشوه تاريخ الإسلام ليؤكد الطابع الإقليمي والوطني لكل قطر وليحول دون لقاء المسلمين.

٥ـ عمل على نشر الحكم الفاسد في بلاد المسلمين ، فحصر الوظائف في أيدي أعوانه وممثليه ، وأشاع روح الفرقة بين أبناء البلد الواحد فعملوا على الفصل بين العرب والمسلمين ، وبين الترك والعرب ، وبين المسلمين والنصارى في بلاد الشام ومصر ، وبين المسلمين والهندوس في الهند ، وأثاروا الخلافات واستغلوها بين أهل السنة والشيعة. والعرب والبربر ، وجمد الاستعمار المجتمعات البدوية ، وجمد القبليات ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات الكبرى ، بل فرق بين الريف والمدن والبادية ، وعمق المشكلة الطائفية وغذاها وفرضها ووجهها الوجهة التي تخدمه في بلاد الإسلام ، في الهند ، ولبنان ، وجميع بلاد الإسلام ، لتكون أداة سياسية له ، ينفذ أغراضه ، ويتدخل في شئون البلاد وقتما شاء(٣٣). وفتح أبواب التبشير للإرساليات الأجنبية ، وساندها وضمن لها حرية الحركة والتمويل ـ ففي أفريقيا وحدها يوجد مئة ألف مبشر ومبشرة بالإضافة إلى ما لهؤلاء من مدارس ومؤسسات ومستوصفات وصحف وغير ذلك(٣٤). وسهل الاستعمار استيراد أقليات دينية غريبة من الأرمن والأشوريين والنساطرة في المشرق العربي ، واستقدم أجناسا غربية من ملطيين ويونانيين ويهود في أقطار أخرى.

٦ـ شجع الأحزاب القومية والوطنية والطائفية والإلحادية التي عملت على تمزيق البلاد بتناحرها وولائها للأجنبي ، لتخدمه وتخدم مصالحه. واصطنع الزعماء في كل قطر إسلامي ، وسرق الثورات وزرع الخوف في نفوس كثير من المسلمين وأبعد مفهوم الجهاد وحاربه بمختلف الوسائل. وجاءت أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) مع روسيا لترث الإستعمار ـ فوضعت خطة سميت لعبة الأمم وتعني النشاط الذي بدأته وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن بغية وضع المخططات

---

(٣٣) فالإنجليز أثناء استعمارهم للعراق كانوا يقدمون الأكفان باسم صاحبة الجلالة الملكة ، لكل من يقتل نفسه في ذكرى عاشوراء ، وذلك بهدف تشجيع إحياء المناسبة ، وتعميق الشقاق بين أهل السنة والشيعة.(نجيب صالح ص ١٤٧).

(٣٤) إحسان حقي ـ المسلمون أمام التحدي العالمي ص ١٣.

المناسبة لبسط النفوذ الأمريكي على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء إلى الحرب المسلحة ، وبذلك يقترب المعنى من : التخطيط السياسي للصراع على مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة(٣٥).

يقول وزير المستعمرات البريطاني عام **١٩٣٨م** :

« إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي أن نحذره ونحاربه ، وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك ، بل فرنسا أيضا...

إن سياستنا تهدف دائما إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك.

إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى ـ شجعنا وكنا على صواب ـ نمو القوميات المحلية ، فهي أقل خطرا من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي »(٣٦).

وأسفرت هذه الآثار عن إقصاء الشريعة الإسلامية عن ميدان الحكم في العالم الإسلامي ، وأصبح عدد دوله التي ظهرت بعد سقوط الخلافة العثمانية كبيرا(٣٧) ، وجميعها تعد من دول العالم الثالث الموصوف بالضعف والتخلف ، وتقع هذه الدول في قارتي آسيا وأفريقيا ودولة واحدة في أوربا هي ألبانيا ، هذا عدا عن الأقاليم الواسعة التي لاتزال ترزح تحت الاحتلال الأجنبي في الاتحاد السوفييتي والصين وفلسطين وغيرها ، والدول التي لايشكل المسلمون فيها أغلبية تزيد على **٥٠٪** وقد أثبتنا ذلك فيما سبق وبينا أسماء هذه الدول والبلدان عندما بحثنا العالم الإسلامي فارجع إليه.

---

(٣٥) انظر ـ مايلز كوبلاند ـ لعبة الأمم ـ تعريف المترجم للعبة الأمم (ص ٦).

(٣٦) من كتاب هموم داعية للشيخ محمد الغزالي.

(٣٧) وقد انشرحت صدور أعداء الإسلام لهذه التقسيمات واعتبروا التقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام بأنه سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية (أي عملية التغريب) فقالوا : « إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لايمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية ». (انظر الغارة على العالم الإسلامي ص ٩-١٠).

هذا وتتصف معظم الدول الإسلامية الحالية بالتبعية السياسية في مجال الحكم والإقتصاد والفكر ، وهذا مايجعل أوضاعها غير مستقرة وعرضة لأطماع المعسكر الشرقي والغربي على حد سواء ، كما اتصف بالعجز في مواجهة التحديات العنيفة التي يواجهها من الصليبية والصهيونية في البلاد العربية وأفريقيا ، والهندوسية في شبه القارة الهندية ، والشيوعية في تركستان والصين وأفغانستان ، وسنعطي تفاصيل ذلك عند تعرضنا للقضايا الإسلامية المعاصرة إن شاء الله.

الفصل الرابع

واقع العالم الإسلامي في الناحية الاقتصادية

قام الإسلام في حل جميع مسائل الحياة على الفطرة ، فلم يهمل جانبا من جوانبها ولاتجاهل حقيقة من حقائقها ، فأقر في المسائل الإقتصادية للحياة الإنسانية جميع الأصول الفطرية التي قام عليها صرح إقتصادي إنساني ثابت لا تحتاج إلى تعديل فضمن حماية حياة الإنسان كل إنسان بنظام من التآخي يمقت الطفيلية والنهب في إطار من الأفكار والثقافة المستوحاة من صميم العقيدة الإسلامية التي تعد العمل الإقتصادي حفظا للحياة(١) ، وللنوع الإنساني. فقام الإقتصاد الإسلامي على أصول منها :

- إن المال كله لله والبشر مستخلفون فيه.
- وجوب تأمين الضروريات لكل فرد من مأكل وملبس ومسكن.
- تحريم أكل أموال الناس بالباطل في أي صورة من الصور كالرشوة والسرقة والغبن.
- تحريم الربا وأحل الإسلام محله القرض الحسن. واعتبر المرابي عدوا محاربا لله ورسوله لأنه يستغل حاجة الآخرين فيتحكم فيهم ويزرع بذور الحقد بين الناس(٢).
- تحريم الاحتكار والجشع والاستغلال والمكوس.
- النهي عن أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، فحارب الطبقية من أي نوع ، ورمى إلى إقامة عدالة اجتماعية تخلو من الحقد والظلم. فهو لايسعى لإفقار الغني بل يأخذ بيد الفقير ويرتفع به إلى مستوى لائق من العيش ومن هنا يسود المجتمع الحب والتآلف بين الغني والفقير لا الصراع والحقد(٣).
- الحث على الإنفاق ووجوبه إذا اقتضت الضرورة.

كما قرر الإسلام الحجر على السفهاء الذين يبذرون أموالهم في الوجوه غير المشروعة. فعلى الإنسان أن يحسن الخلافة في المال.

- كما قرر الإرث والوصية لتفتيت الثروة وعدم تجميعها في أيدي أناس معدودين(٤).

---

(١) انظر مالك بن نبي - مفكرا إصلاحيا ص ٢٣٥.

(٢) انظر - أبو الأعلى المودودي - الربا ص ٤٠-٤٥.

(٣) كما في الأفكار الاشتراكية - فكرة صراع الطبقات - التي تولد الحقد الدائم بين الناس.

(٤) وهذا يخالف الإرث الرأسمالي (والوصية) الذي يركز الثروة في أيدي عدد محدود من الناس.

- ولم يفصل الإسلام الحياة الإقتصادية عن الحياة الدينية والخلقية التي شرعها للناس ، فإن الإنسان خلق لعبادة الله ، وإن مافي الأرض من ثمرات خلق ليكون معونة له على تلك العبادة ، فالمسلم ينظر إلى كل شيء حوله من خلال شغله برسالته ، فالله مورد حياته ، ومصدر خيره وعونه ، والناس إخوته يعنيهم من أمر رسالتهم مثل مايعنيه ، ويتنافسون فيها فلا يزيدهم التنافس إلا فرحا وتعاونا وألفة ومحبة. والمال إلى جانب ذلك فضله ليس هدفا ولاغاية. ولا مجال له في نفوسهم المشغولة بغرضها إلا مجال الضرورة ... وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية : « إن الأصل أن الله تعالى إنما خلق المال إعانة على عبادته لأنه إنما خلق الخلق لعبادته »(٥) ، ولذلك فحياة المسلم وحدة كاملة متوازنة ، فحسم الإسلام الشر بحذافيره واجتثّ نوابت الفساد من أصولها في نفسية المسلم.

- وحث الإسلام على السعي في طلب الرزق وأباح الملكية الفردية وبين الحلال والحرام - والفردية أحد عناصر التقويم الروحي الذي أريد لنفس الإنسان ليكون لكل فرد إحساسه الذاتي بالتكليف الذي ألقي على عموم الناس بعمارة الأرض ولتكون مسئوليته الخاصة عن ذلك التكليف. وحظر على المسلم الخبائث فحرم الخمر وأنواع المسكرات والمخدرات وسائر المنكرات والفواحش ولم يقتصر على تحريمها فقط بل حرم كذلك صناعتها وإعدادها والإتجار بها بيعا وشراء ... ولم يعد الإسلام البغاء مهنة ولا الرقص حرفة ولا الغناء من وسائل الكسب ، والمال الذي يأتي من هذه السبل لا يعد مالا حلالا بل جميع المكاسب التي تدر الربح على بعض الناس وتضر بالآخرين أو بالمجتمع البشري كالرشوة والسرقة والميسر وصنوف المقامرة وجميع المعاملات التي يخالطها الغبن والغش - يراها الإسلام جرائم يعاقب عليها. وهو يحرم إحتكار الحبوب والأغذية والأمتعة التي تعد من حاجيات الناس ويمنع حبسها طمعا في ارتفاع الأسعار فيفضي ذلك إلى الأزمات والضنك في المعايش ، كما حرم طرق الكسب التي تفضي إلى النزاع والتخاصم ، أو التي يتعلق الربح والخسارة فيها بالحظوظ المجهولة ، وليس للسعي فيها نصيب ، أو لا تكون بين المتبايعين بها أو المتعاقدين عليها حدود معلومة أو حقوق واضحة مرسومة. وبذلك لم يدع الإسلام الملكية الفردية حرة طليقة(٦) ، بل قيدها

---

(٥) السياسة الشرعية ص ٤٠ / وانظر الثروة في ظل الإسلام - البهي الخولي ص ٧٢ فما بعد.

(٦) انظر الثروة في ظل الإسلام - البهي الخولي - ص ٧٧-٧٩.

بضوابط غاية في الإحكام ، وجعلها توجه لخير البشرية.

ولم يبين الإسلام بعد ذلك أسلوب الخطط الإقتصادية ، وضمان تحقيق هذه الأصول ، وكيفية التعامل المباح بين المؤسسات العامة والخاصة ، واشراف الدولة أو سيطرتها على الانتاج وماأشبه ذلك. فهي موكولة إلى اجتهاد ذوي الإختصاص من الأمة في حدود تلك الأصول التي لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، فقد ترك الإسلام كما هو شأنه في كل مايعرض له من الأمور البشرية ـ للفكر الإنساني وللجهود البشرية أن تبتكر في كل عصر مايلزمها لتحقيق مصالحها.

والمال الذي يمتلكه المسلم يتصرف فيه صاحبه بطرق ثلاث :

ـ فإما أن يستهلكه في مرافق الحلال لا في الشهوات والسرف في الترف ، فقد اشترط الإسلام الإعتدال والتوسط في المعيشة ولم يحل بين الإنسان وبين أن يعيش عيشة طيبة معتدلة. قال تعالى :

﴿ **ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾(٧).

وقال جل وعلا في صفات المؤمنين : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾(٨).

ـ وإما أن يستعمله في تجارة أو صناعة تعود عليه بالربح الحلال.

ـ وإما أن يدخره ـ والإسلام يكره كنز الأموال وإدخار الغني مالا يحتاج إليه في نفقاته ، ومن أراد أن يدخر فعليه الزكاة **٥ و ٢**٪ سنويا ليوزع على الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في الآية:

﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله** ﴾(٩). وهذا حق وليس منة. قال تعالى :

﴿ **والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم** ﴾(١٠).

بمعنى آخر نرى الإسلام يبعد كل البعد عن النظام الرأسمالي الفردي الذي يعطي

---

(٧) سورة الإسراء الآية ٢٩.

(٨) سورة الفرقان الآية ٦٧.

(٩) سورة التوبة الآية ٦٠.

(١٠) سورة المعارج الآية ٢٤ ، ٢٥.

حرية العمل والكسب بأي وسيلة كانت. والحرية المطلقة في التصرف بالمال. وبعيد جدا عن النظام الشيوعي والإشتراكي الذي يجعل الفرد سنا في دولاب لا أهمية له ولا اعتبار ، ويلغي ملكيته الفردية. إذ يضع الإسلام تصورا إقتصاديا يقوم على أساس الكسب المشروع والإنفاق المشروع ، ويوجه طرق الكسب وطرق الإنفاق لما فيه صالح الجميع ، ويكون دور القائمين على شئون الإقتصاد دور الجامع الموزع لا المحتكرين الذين يقتصرون في الإنفاق على شهواتهم الخاصة.

وفي عهد جمود المسلمين تخلف نظامهم الإقتصادي كتخلفهم في جميع المجالات فكان الفقر والمرض والأمية والجهل متفشيا ، والتواكل باسم القناعة منتشرا ولكن بقيت فكرة التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي فكان الفقر والقناعة والايثار كل ذلك يجتمع في المجتمع الإسلامي المتخلف. ولم تنل المصالح العامة شيئا من الإنفاق ، ومن ذلك اهمال العناية بالري والزراعة ، فكثرت الفيضانات ، وأهملت الطرق وشئون الأمن ، فاستغل العيارون واللصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت وقام الأعراب بغارات على الريف ونهبوا المحاصيل ، وتربصوا بقوافل الحجاج والتجارة ، فعانى المسلمون فقدان الأمن والجوع وانتشرت الأوبئة ، وخاصة بعد أن تغيرت طرق التجارة عن بلاد الإسلام بعد حركة الكشوف الجغرافية الأوربية.

وفي ظل هذه الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن يبسط سلطانه على بلاد الإسلام ، ففرض نظامه الإقتصادي مع فلسفته ونظرياته الإقتصادية ، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مباديء هذا النظام الإقتصادي ، فأكل المسلمون السحت أولا ، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام ، وبلغ الأمر أنه لم يعد كثير من المسلمين يسلمون بتعاليم الإسلام حتى حرم فيها كثيرا من الطرق المشروعة أحلها نظام الغرب الصليبي الاقتصادي أو النظام الاشتراكي الشيوعي ، واختلط مفهوم النظام الاقتصادي بعملية التنمية. وأصبح الاتجاه العام يتجه إلى التنمية ، دون الأخذ بالنظام الاقتصادي في الإسلام.

ومن أهم **الآثار الاقتصادية التي خلفها الاستعمار** في العالم الإسلامي في النواحي الاقتصادية وتركت بصماتها على الواقع الإقتصادي المعاصر :

١ـ وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة ، فشجع رؤوس الأموال الأجنبية على غزو البلاد واستثمار خيراتها ، وأصبحت معظم الشركات أجنبية تدار لمصالح استعمارية ، فقد أقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف

ذهب أوربا الذي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن التاسع عشر ، وفتح الأسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الإستهلاكية والترفيهية والكمالية ، فأصبح لأفراد العالم الإسلامي ولع خاص بالاستهلاك التفاخري ، ولهم جرأة عجيبة على الانفاق الإستهلاكي والتطرف فيه ، وهذه نقطة قاتلة لإقتصاد المسلمين. ثم عمد الاستعمار إلى إقراض الحكومات للسيطرة عليها وتكبيلها بالنفوذ الغربي وإيقاع ذوي اليسار في الديون للاستيلاء على أملاكهم وتحويل مختلف الأراضي والتجارات والأموال إلى البنوك الأجنبية. فأنتج أجيالا تفكر في الحصول على منتجات الغرب ولا تفكر كيف تنتج هذه الأشياء ، ولاتقف مع نفسها في التفكير في نتائج هذا الشيء واستعماله.

٢ـ احتكر الاستعمار التجارة الخارجية للبلاد الإسلامية ومعظم التجارة الداخلية ، وعمد إلى توطين الأوروبيين في البلاد الإسلامية عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر والهند وأندونيسيا وأفريقيا وتركستان ، وأوفد إلى البلاد العربية خاصة مئات الألوف من الأوروبيين ومعظمهم من اليهود فاستوطنوا فيها وتحكموا في اقتصادها وخاصة في أقطار المغرب العربي.

٣ـ اتجه الاستعمار إلى محاربة الصناعة الوطنية في العالم الإسلامي ليضمن استمرار تبعية البلاد الإسلامية له إقتصاديا كما تتبعه عسكريا أو سياسيا ، وليضمن تصريف منتجات مصانعه فيها ، واكتفى بتوجيه المسلمين إلى الاشتغال بالزراعة ، زاعما أن الصناعة تتطلب قدرة فنية لم يصلوا إلى درجتها بعد. وفي الزراعة شجع حاصلات معينة واحتكر تجارتها مثل القطن في مصر والسودان ، والتمر في العراق ، وزيت الزيتون في تونس والمغرب ، والمطاط في أندونيسيا وماليزيا وزيت النخيل في نيجيريا ، والعنب في الجزائر ، وعمل على إقراض الفلاح بالربا الفاحش ، وجند المرابين والصيارفة وأصحاب الخمارات في مختلف القرى لسلب الأهالي. وهذا أيضا أدى إلى اعتماد البلاد الإسلامية على نمط وسلع وخدمات السوق الأوروبي والأمريكي ، وعدم القدرة إلى التحول عنها إلى غيرها. وهذا يجعلها تشتري السلعة بأي سعر. الأمر الذي استنزف الفوائض المالية الإسلامية نتيجة إقدام الغرب متعمدا على زيادة أسعار صادراته بأكثر من زيادة أسعار النفط ، والمواد الأولية الأخرى.

٤ـ احتكر ثروات العالم الإسلامي المعدنية وبخاصة البترول من البلاد العربية ونيجيريا وأندونيسيا وأذربيجان وإيران ، والقصدير من ماليزيا وأندونيسيا

ونيجيريا ، والحديد في الجزائر وموريتانيا ، والنحاس في بلاد القازاق. وقد ذهب المستعمر ولكن بقي استخراج معظم المعادن بيد الشركات الإستعمارية(١١) وفائدة ذلك تعود للمستعمر ، إذ تنقل الفلزات إلى بلاده وتقوم صناعتها على أرضه ، أما البلاد التي انتجته وهي بحاجة إليه والأيدي التي عملت على استخراجه تتلقف صناعته وتأخذها بأسعار مرتفعة ، أو تتوق إليه ولا تستطيع شراءه.

٥ـ شجع الاستعمار نظام الإقطاع الزراعي والطبقية ، وحرم السواد الأعظم من المسلمين أن يعيش في مستوى لائق ، لذا شاع الفقر والبؤس والتخلف والمرض في عالم الخيرات الوفيرة والموارد الكثيرة ، فأفقر دول العالم مسلمة حاليا ـ وإليك بعض الأرقام المذهلة (من كتاب الحرمان والتخلف في ديار المسلمين للدكتور نبيل صبحي الطويل)(١٢).

---

(١١) وتمتد هذه الشركات كالأخطبوط في جسد العالم الإسلامي. فقد أعلنت شركة ستاندارد اويل رابع الشركات البترولية الأمريكية أنها حققت أرباحا صافية قياسية تقدر ب ١٨ر٢ مليار دولار عام ١٩٨٤م مقابل ٨٦ر١ مليار عام ١٩٨٣م. (الشرق الأوسط ص ٥ الأربعاء ١٩٨٥/١/٢٣م). وسيطرت الشركات التي سميت (الأخوات السبع) على انتاج وصناعة البترول ، فهي تملك امتيازات ٨٢٪ من احتياطي البترول في العالم المعروف ، وتملك ٧٠٪ من طاقة التكرير العالمية ، وتسيطر على حوالي ٨٥٪ من الطاقة العالمية لاستخراج مشتقات البترول ، وتملك ٥٠٪ من طاقة الناقلات ، بالإضافة إلى ملكية أنابيب نقل البترول. وهذه الشركات هي :جلف أويل ، وبرتش أويل ، وكونتينتال ، ومارثون ، وروبال ديتش شل ، وموبيل أويل ، والبترول المكسيكي ، وأتلانتيك لتكرير البترول ، والشركة الفرنسية للبترول.

وأخذت هذه الشركات تفقد كثيرا من سيطرتها بإنشاء منظمة أوبك.

(١٢) ص ٣٠.

البلـــد	نسبة الفقر من السكان	البلـد	نسبة الفقرمن السكان
نيجيريـا	٥١٪	أندونيسيـا	٨٠٪
الصومـال	٧٠٪	ماليزيـا	٥٥٪
غانـا	أكثر من٥٠٪	بنغلاديش	٧٤٪(١٣)
سيراليـون	٥٥٪	الهنـد	٥٦٪
تنزانيـا	٦٥٪	الفيلـبين	٥٩٪
كينيـا	٤٠٪	إيـران	٣٨٪
مصر	٢٨٪		

هذا عدا البلاد المعدومة في منطقة حزام الجفاف الشديد ، من الرأس الأخضر غربا إلى الصومال شرقا ، وهي جزر الرأس الأخضر ، وغمبية ، ومالي ، والنيجر ، وبوركينافاسو ، وتشاد ، وموريتانيا ، وغينيا ، وغينيه بيساو ، ونيجيريا ، والصومال ، والسودان ، والحبشة ، وكلها دول مسلمة معدمة(١٤).

وبالطبع فإن المرض يلازم الفقر ، ويزيد الفقر فقرا وجهلا وانحدارا في الأخلاق ، وتحللا من القيم ، ولقد أدرك المنصّرون هذه الحقائق منذ زمن بعيد وأتقنوا اللعبة وتفننوا في استغلال الضعف البشري الظاهر في كثير من ديار الإسلام وحولوا عن طريقه أعدادا كبيرة عن دينهم.

(يذكر تقرير حديث من أندونيسيا أنه خلال العقدين الأخيرين أي خلال عشرين عاما فقط ـ أنشأت الأقلية النصرانية هناك من المستشفيات مافاق في عدده

(١٣) يقول : أن أكثر من نصف سكان بنغلاديش البالغ عددهم ٩٢ مليونا من البشر يعيشون دون مستوى الكفاف ، وتنقل وكالة رويتر للأنباء أن عشرة بالمائة من سكان العاصمة داكا والبالغ عددهم ٢٫٥ مليون نسمة هم من الشحاذين الذين يسهمون بنصيب في الجريمة والدعارة وتمثل النساء ٣٤٪ منهم وتتراوح أعمار ١٢٪ منهن بين ١٢-١٧ سنة (ص ٢٧).

(١٤) تتلقى هذه الدول مساعدات من هيئة الأمم المتحدة وفي حين أنه في عام ١٩٧٩م صرف على القطط والكلاب الأمريكية ٣٠٢ مليار دولار ، كانت ميزانية الأمم المتحدة التي تساعد هذه الأقطار ٦٨٣ مليون دولار فقط.

ومن الجدير بالذكر أن أمريكا تقدم ٠٢٢ و٠٪ من ناتجها القومي كمساعدات وتكون مهينة وبها الكثير من الإذلال ، بينما تقدم السعودية حوالي ٥٪ من ناتجها القومي (جعفر آدم حسين ـ عرض كتاب العالم الثالث ـ نظرة من الداخل ـ للكاتب البريطاني بول هاريسون). (الشرق الأوسط الأربعاء ١٩٨٥/٨/٢٨م).

مؤسسات الأغلبية الساحقة من المسلمين ، حتى أن جمعية الإنجيل الثانية أعلنت عام ١٩٧٦م عن تنصير ٤٠٠ر٠٠٠ شخص ، وتلا ذلك نبأ وكالة اليونايتد برس أن ٣ر٥ مليونا من المسلمين قد تنصروا خلال ثلاث سنوات).

وعمدت الجمعيات الأجنبية إلى استغلال هذا البؤس فتبنى الخواجا أندريه سابيه البلجيكي ٣٠٩٠٣ من أطفال المسلمين الصوماليين. ونشط جلب الصغار من أفريقيا إلى الغرب وتعليمهم وتدريبهم ثم عودتهم بعد سنوات إلى مواطنهم الأصلية وهم يحملون في داخلهم علاقات ذات صبغة رسمية وتعاقدية مع الغرب ليكونوا دعاة مخلصين ينشرون معلوماتهم المغلوطة وغير الصحيحة عن الإسلام.

لقد خلّف الاستعمار التفاوت العجيب بين فئات المسلمين وحافظ عليه المسلمون وشكلت ديارهم الجزء الأكبر من العالم الثالث في أفريقيا وآسيا ـ الذي يسميه الغرب خداعا الدول النامية(١٥). كتب الدكتور الطويل قائلا :

« لقد زرت وعشت أياما وأشهرا في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين لاغوس في نيجيريا ودكا في بنغلاديش ، ورأيت فيها جميعا التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لايملكون شروى نقير ، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة ، بين الحدائق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الحواضر الكبرى هذه وفي أحيائها القديمة ، بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحما ودهنا من التخمة ... وبين الأسمال والخرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة ـ بين الفنادق الفخمة ذات النجوم الخمسة ، وكثير منها للأجانب ، وبين المقعدين المعوقين من الشحاذين الفقراء صغارا وكبارا ... على أبواب هذه الأبنية الرائعة. يحدث كل هذا في ديار المسلمين »(١٦).

---

(١٥) توجد ثلاثة معايير تحدد الدول الأكثر فقرا في العالم : الأول : الدخل السنوي للفرد يقل عن ١٠٠ دولار سنويا ، الثاني : انخفاض نسبة المتعلمين أقل من ٢٠٪ من السكان ، الثالث : انخفاض دخل الانتاج الصناعي عن ١٠٪ من إجمالي الناتج القومي.

وقد بلغ عدد هذه الدول في العالم عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ستة وثلاثين دولة مجموع سكانها حوالي ٣٠٠ مليون نسمة. ٢٦ دولة أفريقية و٩ دول في آسيا ودولة واحدة في أمريكا اللاتينية.

ومعظم هذه الدول بلاد إسلامية للأسف. (الشرق الأوسط العدد ٢٤٨١ ص ٤ الجمعة ٢٨ ذو الحجة ١٤٠٥هـ/١٣/٩/١٩٨٥م).

(١٦) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص ٤٣.

وكل ذلك طبعا نتيجة لغياب النظام الإسلامي الاقتصادي وغير الاقتصادي.

٦- ربط الإستعمار عملات العالم الإسلامي بعملته - فالبلدان التي خضعت للنفوذ الانجليزي ، ربطت عملتها بالجنيه الاسترليني ، والبلاد التي خضعت للنفوذ الفرنسي أخضعت عملتها للفرنك الفرنسي ، وارتبطت كثير من العملات الإسلامية بالدولار الأمريكي حاليا.

ولكي يحافظ الاستعمار على بقاء تخلف البلاد الإسلامية وارتباطها به أطلق على العالم الثالث في أفريقيا وآسيا - والذي يشكل في أكثره ديار المسلمين - نفاقا وخداعا : (الدول النامية) والخبث في هذا التعبير أنه يوحي بالحركة القائمة مع أن واقع هذه الدول هو العكس تماما ، ففيه استنقاع إقتصادي إن لم نقل تراجعا وتأخرا(١٧) إذ كلما اشتد الإرتباط وزاد الإستيراد زادت التبعية ، وأثرت على العلاقات الإقتصادية بين بلاد المسلمين وعلى التكامل الاقتصادي وهذا يمنع من نمو الإقتصاد الإسلامي نموا سويا مستقلا.

وترى الغرب يذيع دائما ويملأ الأسماع عن المعونات الخارجية للدول النامية ومع ذلك فإنها لاتنمو بل تزداد فقرا على فقر ، فهو يستهدف الإبتزاز والكسب غير المشروع تحت ستار المساعدات ، ولقد عبر رئيس إحدى الشركات الأمريكية في خطبة له عن سياسة الإحتكارات اليهودية الأمريكية والاستعمار الجديد بقوله :

« لقد حصلنا مقابل كل دولار أنفقناه في السنوات الخمس الماضية على مختلف الأغراض خارج الولايات المتحدة على **٦٧ و٤** دولارا أي أن كل دولار ربح **٦٧ و٣** دولارا ، أي أن نسبة الربح بلغت **٣٦٧**٪ » . وهي سرقة وابتزاز وليست عمليات إقتصادية سليمة(١٨).

ويقول (جورج وودز) المدير السابق للبنك الدولي عن المعونات الإقتصادية : « إذا استمر الحال على هذا المنوال تكون كمية رؤوس الأموال الخارجة من الدول النامية أكثر من المبالغ التي دخلتها في فترة خمسة عشر عاما ، وذلك بسبب الفوائد المرتفعة »(١٩).

---

(١٧) انظر المقال القيم : العالم الثالث وقوانين التغير في التخلف المنهجي وتنمية التخلف بقلم عادل .م.ع. حسون أستاذ القانون الدولي والنظم السياسية - البلاغ العدد ٧٨١ ص ٥٦-٦٣.

(١٨) السعدني - مصطفى - الفكر الصهيوني والسياسة اليهودية - مطابع الأهرام التجارية. القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

(١٩) كتاب المعونات الأمريكية والسوفيتية لروبرت ولتزر تعريب .د. صبحي الطويل - دار القلم١٩٧٢م ص ٨.

ولعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي في مصر في اتفاق برامج التثبيت الإقتصادي الذي عقد مع البنك في جمهورية مصر العربية للفترة مابين ١٩٧٨-١٩٨١م وكان الهدف المعلن لهذا البرنامج هو إخراج مصر من أزمتها الإقتصادية وتقليل نسبة عجز ميزانها التجاري. وفي الدراسة التي أجراها الدكتور رمزي زكي الخبير الأول في معهد التخطيط القومي المصري ظهر أن الصندوق دخل مصر عام ١٩٧٨م وهي مدينة ب ٨٠٠٠ مليون دولار ... وخرج الصندوق إياه منها عام ١٩٨١م وهي مدينة بأكثر من ١٨٫٠٠٠ مليون دولار أي أن كل مواطن مصري كان مديونا ب ٤٢٢ دولارا للعالم(٢٠) والغريب أن دخل الفرد الواحد كان لايتعدى ٤٦٠ دولارا في السنة.

وتذكر دراسة أخرى ملخصا لواقع الحياة الاقتصادية في مصر تحت عنوان : تضاعف أعباء الديون ٧ مرات في أقل من ٦ سنوات وزيادة العجز التجاري ٤٠ مرة)(٢١). وهو مايصلح مثلا لمعظم أقطار العالم الإسلامي.

وبمناسبة الديون الخارجية وتراكمها في كثير من الدول المسلمة عرض الدكتور صبحي الطويل بعض الأرقام المذهلة التي تزايدت بصورة هائلة في العقد (١٣٩٠-١٤٠٠هـ/١٩٧٠-١٩٨٠م) بحيث شكلت في عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م أكثر من ٥٠٪ من إجمالي الناتج القومي. والديون في الغالب للدول الكبيرة أو للمؤسسات الدولية الخاضعة لها. فيؤثر ذلك في سياسات الدول الفقيرة المدينة الداخلية والخارجية.

---

(٢٠) الشرق الأوسط عدد ٢١ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٨٢م ص ٧.

(٢١) جريدة الشرق الأوسط ـ السابقة ـ رسالة مكتب القاهرة بقلم عصام رفعت عام ١٩٨٢م.

تراكم الديون الخارجية لبعض دول العالم الإسلامي

الدولـــــة	المبلغ بالدولار عام١٩٧٠	النسبة المئوية من إجمالي الناتج القومي	المبلغ عام ١٩٨٠	النسبة المئوية
افغانستـــان	٤٥٤مليون دولار	-	١٠٩٤مليون دولار	-
باكستـــان	٣٠٥٩مليون دولار	٣٠,٥٪	٨٨٧٥مليون دولار	٣٤,٧٪
الســـودان	٣٠٨مليون دولار	١٥,٣٪	٣٠٩٧مليون دولار[٢٢]	٣٧,٢٪
اليمن الجنوبي	١٠٠مليون دولار	-	٤٩٩مليون دولار	-
اندونيسيـــا	٢٤٤٣مليون دولار	٢٧,١٪	١٤٩٤٠مليون دولار[٢٣]	٢٢,٥٪
موريتانيـــا	٢٧مليون دولار	١٦,٨٪	٧١٤مليون دولار	٣٩,٧٪
تركيـــــا	٢,٧مليار دولار (عـام١٩٧٣)	-	١٧,٥مليار دولار[٢٤]	-
	١٨٥٤مليون دولار	١٤,٤٪	١٣٢١٦مليون دولار	٢٢,٤٪

(٢٢) بلغت ديون السودان عام ١٩٨٢م ٧٨٠٠ مليون دولار (النيوزويك الأمريكية عدد ١٦ أيار (مايو) ١٩٨٣م ص ٣٧. في حين بلغت ٩ مليارات دولار عام ١٩٨٥م. (الشرق الأوسط السبت ١٩٨٥/١١/١٦م ص ٥). وهناك ٧٤٠ مليون دولار أقساط ديون مستحقة حتى عام ١٩٨٤م فقط لدول اسبانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والدانيمارك والسويد وكندا وبريطانيا والنمسا وايطاليا وسويسرا والمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

والديون كلها كانت نتاجا لقروض من الخارج لم تستغل استغلالا جيدا في أشياء منتجة فمثلا : مصنع بورتسودان للغزل الرفيع وهو مصنع حكومي اكتمل انشاؤه عام ١٩٨٠م ، ولكنه ظل معطلا حتى عام ١٩٨٥م حتى حلت مشكلة إمداده بالمياه والكهرباء ،رغم أن هذا المصنع قرر إنشاؤه منذ السبعينات لتصدير غزل القطن السوداني ، والآن السوق محتاج لهذه الغزول في السودان على حد قول السيد محمد عبد الله وزير المالية والتخطيط الإقتصادي السوداني في خطاب الميزانية لعام ١٤٠٦هـ.(الشرق الأوسط - السبت ١٩٨٥/١١/١٦م /ربيع الأول ٤٠٦ هـ ص ٥).

(٢٣) في حين كانت ديون أندونيسيا عام ١٩٦٦م ١٧١٩,٤ مليون دولار (أندونيسيا العدد ٧٤١/١٩/ص ٤) ولكنها بلغت عام ١٩٨٢م ٢٥,٠٠٠ مليون دولار (الأخبار القاهرية عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣م).

(٢٤) مصطفى محمد ص ٢٤٠/ وبلغت ٣٢ مليار عام ١٩٨٧م / من محاضرة للمهندس نجم الدين أربكان في المدينة المنورة بتاريخ ١٩٨٧/٢/٢٥م.

مصـــــر	١٦٤٤مليون دولار	٢٣٫٨٪	١٣٠٥٤مليون دولار[٢٥]	٥١٫٧٪
المغـــرب	٧١١مليون دولار	١٨٪	٧٠٩٨مليون دولار	٣٨٫٦٪
نيجيريـــا	٤٧٨مليون دولار	٦٫٤٪	٤٩٩٧مليون دولار[٢٦]	٥٫٥٪
تـــونس	٥٤١مليون دولار	٣٨٫٢٪	٢٩٥٥مليون دولار	٣٣٫٩٪
سوريـــا	٢٣٢مليون دولار	١٢٫٨٪	٢٤٩٣مليون دولار[٢٧]	٢٠٫١٪
الجزائـــر	٩٣٧مليون دولار	١٩٫٣٪	١٥٠٧٣مليون دولار	٣٨٫٧
السنغـــال	٩٨مليون دولار	١١٫٦٪	٩٠٦مليون دولار	٣٤٫٩٪

(٢٥) وأصبحت ديون مصر عام ١٩٨٢م ١٩٢٠٠ مليون دولار حسب معلومات البنك الدولي للإنشاء والتعمير. في حين بلغت عام ١٩٨٨م حوالي ٤٥ مليار دولار.

(٢٦) وبلغت ديون نيجيريا في نهاية عام ١٩٨٤م ١٧٫٥ مليار دولار وعام ١٩٨٥م ٢٠ مليار دولار. وهذه الديون الخارجية. أما الداخلية فبلغت ٨ مليارات ويمتص الدين الخارجي حوالي ٤٥٪ من مصادر الدولة النيجيرية.(الشرق الأوسط الأربعاء ١٢ ذو الحجة ١٤٠٥هـ/٢٨/٨/١٩٨٥م ص ٥).

(٢٧) وبلغت ديون سورية عام ١٩٨١م ٣٩٠٠ مليون دولار. (جريدة الرأي ١٩ فبراير (شباط) نقلا عن وكالة الصحافة الفرنسية).

وقد بدأت أزمة الديون العالمية تطفو على الساحة الدولية منذ عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م حيث بدأت تترك آثارها الواضحة على الدول النامية المدينة نتيجة للتمويل المستمر لجزء كبير من خيراتها إلى العالم الصناعي لتسديد الديون المتراكمة عليها والفوائد المستحقة ، وهي طريقة لاستنزاف خيرات هذه الدول بشكل يجعلها مصدرا للمواد الأولية الرخيصة ، وسوقا لمنتجاتها الصناعية. ووصل حجم هذه الديون إلى ٩٠٠ بليون دولار(٢٨).

وبلغ إجمالي الديون الخارجية المتراكمة على دول جنوب الصحراء في أفريقيا عام ١٩٨٥م حوالي مئة بليون دولار منها ٦٠و٢ بليون للبنك الدولي. وتواجه معظم هذه الدول صعوبة شديدة في تسديد هذه الديون أو دفع الفوائد المستحقة عليها ، كما تواجه صعوبات مماثلة في إعادة جدولة هذه الديون أو في الحصول على قروض جديدة(٢٩).

كما قدر إجمالي ديون الدول النامية مع نهاية عام ١٩٨٥م ٩٧٠ بليون دولار كما ذكرته مصادر إقتصادية في العاصمة الأمريكية(٣٠).

وقد طرحت أمريكا في كلمة وزيرها بيكر - وزير الخزانة - (كما قالت جريدة التايم) برنامجا لحل مشاكل ديون العالم الثالث وذلك في المؤتمر المشترك الذي عقده البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في مدينة سيئول عاصمة كوريا الجنوبية - وذلك بزيادة الأموال المتاحة للدول المدينة بمبلغ ٢٩ ألف مليون دولار على مدى الثلاثة أعوام المقبلة من البنوك التجارية والبنك الدولي. وأن يتولى البنك الدولي دورا أكثر فعالية في معالجة مشكلة الديون ، وأن يؤمن قروضا طويلة الأجل ، أي تريد أمريكا زيادة قروض البنك وتوسيعها ، وتريد منه التعاون مع البنوك التجارية الأخرى العالمية لتأمين الأموال اللازمة. ويعتقد بيكر أن البنك الدولي وبنك التنمية الأمريكية يستطيعان فيما بينهما أن يؤمنا ٥٠ ٪ من الإحتياجات للدول النامية(٣١). ولايخفى مافي هذا المشروع من خطة أمريكية لزيادة تبعية دول العالم الثالث لأمريكا ، وسيطرتها عليها.

---

(٢٨) الشرق الأوسط - أزمة الديون العالمية - بقلم - د. محمد سالم الصيان /٣٠ محرم ١٤٠٦هـ/١٤/١٠/١٩٨٥م. ص ٤.

(٢٩) الشرق الأوسط العدد ٢٥٤٥ / السبت ٤ ربيع الأول ١٤٠٦هـ/١٦/١١/١٩٨٥م. ص ٥.

(٣٠) أخبار العالم الإسلامي العدد ٢٥/٩٢١ رجب ١٤٠٥هـ/١٥/٤//١٩٨٥م.

(٣١) الشرق الأوسط - الأحد ٢٠/١٠/١٩٨٥م ص ١٠.

ولو تتبعنا حلقة الديون المفرغة للدول النامية نجد أنها تتلخص في زيادة أعباء المديونية - يؤدي إلى - الاهتمام بزيادة صادراتها من المواد الخام الأولية - يؤدي إلى - زيادة العرض العالمي من هذه المواد (إضافة لحالة الركود الإقتصادي العالمي) - يؤدي إلى - انخفاض أسعارها العالمية - يؤدي إلى - نقص في حصيلة الصادرات من العملات الصعبة - يؤدي إلى - عدم القدرة على سداد المديونية السنوية - يؤدي إلى - إعادة جدولة هذه الديون مع تزايد الأعباء نتيجة لعقوبات الفوائد الإضافية الناتجة من التأخر في السداد - يؤدي إلى - الاتجاه إلى مزيد من الاقتراض - يؤدي إلى - زيادة أعباء المديونية. ويمكن تمثيلها بالشكل التالي :

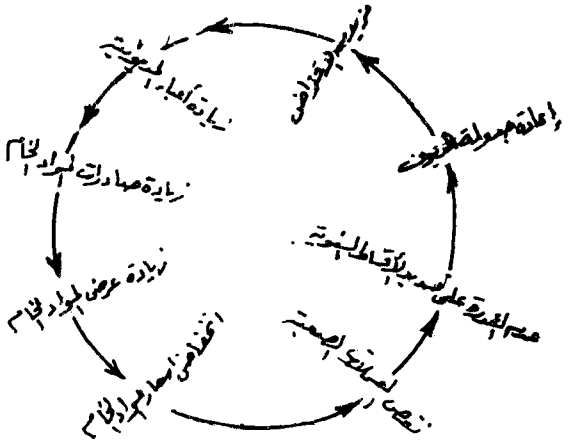

وتشترك حكومات بعض الدول النامية في توسيع هذه الحلقة من جراء الاندفاع غير المخطط إلى سلاح المديونية وتقربه بقصد أو بدون قصد إلى حبل وريدها لتجهز على آمال التنمية الاقتصادية التي تنشدها ولتزداد فقرا على فقر وتتسع تبعا لذلك الفجوة بينها وبين الدول المتقدمة.

وقد لخص الدكتور محمد سالم سرور الصبان أستاذ الاقتصاد المساعد بجامعة الملك عبد العزيز بجدة أسباب ذلك(٣٢) في العوامل التالية :

١- ارتفاع أسعار الفائدة العالمية.

٢- أمد الكساد الاقتصادي العالمي.

٣- تزايد الحماية الجمركية في الدول الصناعية.

٤- تراخي أسواق المواد الأولية.

---

(٣٢) الشرق الأوسط ٣٠ محرم ١٤٠٦هـ/١٤/١٠/١٩٨٥م.

٥- شغل دول العالم الثالث في نزاعات جانبية.

٦- هروب رؤوس الأموال الوطنية.

٧- إهمال تنمية مختلف القطاعات.

وغاب عن بال الدكتور السبب الرئيسي وهو غياب النظام الاقتصادي الإسلامي واهتزاز الشخصية المسلمة.

وقد قدر المصرف الألماني الغربي (دوينستر بنك) حاجة البلدان النامية (وهي إسلامية في معظمها) إلى القروض في السنوات الخمس (**١٩٨٥-١٩٩٠م**) بما يتراوح بين ١٨٠ إلى ٢٤٠ بليون دولار. وارتفعت فوائد القروض بين عام **١٩٧٨و١٩٨٤م** من ١٩ بليون إلى ٧٠ بليون دولار(٣٣).

٧- حرم الاستعمار العالم الإسلامي من إقامة شبكة مواصلات تربطها ربطا وثيقا رغم تجاورها وسهولة ربطها ليكرس تمزيقها وتفريقها وحاجتها إليه.

وكل مااهتم به من مواصلات كانت لخدمة أغراضه الإستعمارية من مواطن الإنتاج إلى الموانيء أو أماكن التصدير كما هو الحال في أقطار المغرب العربي - تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، ونيجيريا ، والسودان ، ومصر ، والعراق ، وإيران ، والهند.

فعجزت دول البلدان الإسلامية في عهد استقلالها عن استيعاب معنى التخطيط والإحاطة بمفهومه الواسع ومايمكن أن يؤدي إليه من نتائج وتشابه إنتاجها ، فأدى ذلك إلى تنافسها رغم ماتتمتع به هذه البلدان من تكامل إقتصادي.

هذا الواقع الاقتصادي المحزن للعالم الإسلامي وبقاء أثر الاستعمار في بلاد الإسلام أمر طبيعي في ظل غيبة النظام الاقتصادي الإسلامي ، وهذا التخلف الذي يعاني منه عالم الإسلام لايتحمل الإسلام وزره بل هو في الحقيقة عقوبة مستحقة من الله على المسلمين لتخليهم عن نظام الإسلام لا تمسكهم به كما يزعم الزاعمون.

قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾(٣٤).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾(٣٥)

---

(٣٣) الشرق الأوسط - السبت ١٩٨٤/١٢/٢٩م. ص ٥.

(٣٤) سورة طه الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٣٥) سورة الجن الآية ١٦.

وهكذا فقد العالم الإسلامي مكانته وتلاشت قوته وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله(٣٦). باستمرار الاستعمار الفكري والثقافي الأجنبي بعد الاستقلال السياسي إلى اليوم بمختلف التيارات والعقائد والنظريات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، فكانت تأثيرا متصلا بالتأثير السابق أيام الاستعمار في القادة والساسة وأصحاب الرأي والمشرعين وفي الفرد المسلم بأسلوب التربية في هذه البلاد الإسلامية ، فظلوا على ولائهم للعلمانية ، وتلمسوا في تشريعاتهم القضائية والإدارية مراجع القانون الفرنسي والإنجليزي والشيوعي والإشتراكي ... إلخ ، فأصيبت الأمة بالهوان ولعل ذلك تصديق للنذير النبوي الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

« يامعشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن ونزلن عليكم ـ أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض مافي أيديهم ، ومالم يحكموا بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم »(٣٧).

وهذا الحديث يلخص بالفعل واقع العالم الإسلامي من جميع النواحي.

فالأمراض الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع الإسلامي والتي استقدمها من الغرب وانحرافاته ، والجفاف الذي يغزو أراضي المسلمين وامتداد التصحر في أقطاره ، والخوف من الحكام وفقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم والتحديات الخارجية العاتية ـ الصليبية والشيوعية والصهيونية والهندوسية والخلافات المستفحلة المستحكمة بين الأقطار الإسلامية ، والحروب التي تنشب بينها والتي لا تجد من القوى الكبرى عملا يوقفها أو يحد منها ، بل تجد تشجيعا وتأييدا لتستمر تستنزف طاقة الأمة البشرية والمادية وتعمق الاقليمية والقومية والعداء بين أطراف النزاع. هذا هو واقع الأمة الإسلامية باختصار بينه هذا الحديث الشريف. فهل يعي المسلمون ذاتهم ؟(٣٨).

---

(٣٦) من أقوال المبشر زويمر سنة ١٩١١م في مؤتمر لكنو. وكان رئيسا للمؤتمر. ـ المبشر زويمر ومفترياته حاضر العالم الإسلامي ـ للأمير شكيب ص ١٨١-١٨٢.

(٣٧) أخرجه ابن ماجه والطبراني في الكبير.

(٣٨) انظر الباب الرابع من هذا الكتاب.